# التفسير الموضوعي

## نماذج رائدة في ضوء القرآن الكريم

الدكتور

**محمد محمد السيد عوض**

الأستاذ المشارك بقسم وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

وكلية التربية - الأقسام الأدبية - بحائل



مكتبة الرشد

ناشرون

# التفسير الموضوعي

## نماذج رائدة

## في ضوء القرآن الكريم


الدكتور

محمد محمد السيد عوض

الاستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

وكلية التربية - الأقسام الأدبية - بحائل



مكتبة الرشد

ناشرون

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

مكتبة الرشد ناشرون

المملكة العربية السعودية ــ الرياض

شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)

ص.ب.: ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ ــ هاتف: ٤٥٩٣٤٥١ ــ فاكس: ٤٥٧٣٣٨١

E-mail: alrushd@alrushdryh.com

Website: www.rushd.com

★ فرع طريق الملك فهد: الرياض - ت: ٢٠٥١٥٠٠ - ف: ٢٠٥٢٣٠١

★ فرع مكة المكرمة: ت: ٥٥٨٥٤٠١ - ف: ٥٥٨٣٥٠٦

★ فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري - ت: ٨٣٤٠٦٠٠ - ف: ٨٣٨٣٤٢٧

★ فرع جدة: ميدان الطائرة - ت: ٦٧٧٦٣٣١ - ف: ٦٧٧٦٢٥٤

★ فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة - ت: ٣٢٤٢٢١٤ - ف: ٣٢٤١٣٥٨

★ فرع أبها: شارع الملك فيصل - تلفاكس: ٢٣١٧٣٠٧

★ فرع الدمام: شارع الخزان - ت: ٨١٥٠٥٦٦ - ف: ٨٤٧٨٤٧٣

## وكلاؤنا في الخارج

★ القاهرة: مكتبة الرشد - ت: ٢٧٤٤٦٠٥

★ بيروت: دار ابن حزم - ت: ٧٠١٩٧٤

★ المغرب: الدار البيضاء - وراقة التوفيق - ت: ٣٠٣١٦٢ - ف: ٣٠٣١٦٧

★ اليمن: صنعاء - دار الآثار - ت: ٦٠٣٧٥٦

★ الأردن: عمان - الدار الأثرية - ت: ٦٥٨٤٠٩٢ - جوال: ٧٩٦٨٤١٢٢١

★ البحرين: مكتبة الغرباء - ت: ٩٥٧٨٣٣ - ٩٤٥٧٣٣

★ الإمارات: مكتبة دبي للتوزيع - ت: ٤٣٣٣٩٩٩٨ - ف: ٤٣٣٣٧٨٠٠

★ سوريا: دار البشائر - ت: ٢٢١٦٦٦٨

★ قطر: مكتبة ابن القيم - ت: ٤٨٦٣٥٣٣

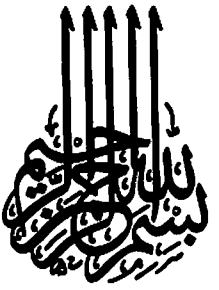

# الإهداء

جرت عادة الكتّاب والباحثين على إهداء أعمالهم العلمية إلى بعض الشخصيات التي لها أثر طيب في نفوسهم وحياتهم.

لذلك أهدي هذا البحث العلمي

(التفسير الموضوعي)

إلى:

- سعادة الدكتور / **بدر بن عبد الله العردان** المدير العام لإدارة كليات البنات بمنطقة حائل وهو رجل ينتمي بجذوره إلى عراقة الأصل، وسخاء النفس، والكرم الحاتمي، وهو ينتمي إلى أسرة تقدر عملية العلم وتحترم العلماء.

- إلى أخي الحبيب الأستاذ/ **عبد الله الأحمد** (أبو عبد اللطيف) مدير شئون العاملين بالإدارة العامة لكليات البنات بمنطقة حائل ذلك الرجل الخلوق الذي يدل بكرم خلقه ، وكريم فعله على طيب أصله.

**المؤلف / محمد محمد السيد عوض**

## -تقديم وتمهيد-

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ ١٠٢: آل عمران.
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ ١: النساء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ ٧٠: ٧١: الأحزاب.

أما بعد :
فإن القرآن الكريم كلام رب العالمين أودع فيه من أنواع الهدايات ما يجعله صالحاً للعمل به في كل زمان ومكان.

ولا شك أن علوم التفسير من أشرف العلوم وأكرمها لتعلقها ببيان معاني القرآن وتجلية حقائقه، وبيان حججه وتوضيح براهينه في العقيدة والشريعة والمنهج والسلوك وفيما يجدّ من قضايا تحتاج الأمة إلى بيان موقف القرآن منها.
حيث يغوص الباحث في أعماق القرآن ويستخرج موقف القرآن من هذه القضية التي يعالجها.

وقد كتب كثير من أساتذتنا بجامعة الأزهر وكثير من العلماء الأجلاء بالجامعات الأخرى في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، فأحببت أن أسهم بجهد يسير وعمل متواضع في هذا اللون من ألوان التفسير، فكانت هذه الدراسة: (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، نماذج رائدة في ضوء القرآن الكريم).

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني إنه قريب مجيب.
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

# المبحث الأول

ويشتمل على :

- ❖ القرآن كتاب هداية وإعجاز وواجب الأمة نحوه.
- ❖ كلمة موجزة عن نشأة علم التفسير.
- ❖ تعريف التفسير الموضوعي.
- ❖ الجذور التاريخية لنشأة علم التفسير.
- ❖ الاتجاه اللغوي في التفسير الموضوعي.
- ❖ الدراسات القرآنية والتفسير الموضوعي.
- ❖ ألوان التفسير الموضوعي وأنواعه.
- ❖ أهمية التفسير الموضوعي.
- ❖ التفسير الموضوعي وأنواع التفاسير الأخرى

## القرآن كتاب هداية وإعجاز وواجب الأمة نحوه

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وبعد ، ،

فالقرآن كتاب هداية وإعجاز في العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، فهو معجز شكلاً ومضموناً وإن شئت فقل : معجز من حيث المعنى والمعني ، وإن شئت فقل : معجز من حيث الإطار والمحتوى، شهد له الأعداء ببلوغه الغاية القصوى في فصاحة ألفاظه ودلالات تراكيبه، وأنواع بيانه، وسمو بلاغته وعظمة أساليبه، لذلك عجز فحول العرب عن معارضته وطاشت أمام فصاحته وبلاغته عقولهم والله يتحداهم بالقرآن فرادى ومجتمعين، وهم أساطين الفصاحة والبيان والبلاغة في مدة مفتوحة بمقدار ... بمقدار حياتهم، وحياة من يأتي بعدهم إلى يوم القيامة أن يؤلفوا قرآناً مثله فعجزوا يقول تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ ٣٤ الطور ويثبت الله تعالى عجز الجن والإنس جميعاً عن معارضة القرآن ليبين لجميع المكلفين أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب العالمين خالق القوى والقدر. يقول تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ (٨٨) الإسراء.

**ويتنزل الله تعالى في المقدار المتحدى به وكان معني كلامه :**

إن عجزتم أيها المكلفون من الجن والإنس عن الآتيان بمثل القرآن كله فنحن نتحداكم بأن تأتوا بعشر سور مفتريات من مثله .يقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ (١٣هود) فعجزوا عن ذلك، فتنزل الله في المقدار المتحدي به إلى نحو ثلاث آيات من آيات القرآن وهذا المقدار هو ما تشتمل عليه أصر سورة من سور

القرآن، يقول تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (٢٣ البقرة).

وأمام هذه المعجزات الكبرى والصرح الشامخ الذي لا يطاول ولا يبلغ مداه، وجد المشركون أنفسهم أمام معجزة كبرى تأخذ بألبابهم وعقولهم فكانوا يتسللون خفية لسماع القرآن من النبي ﷺ يقول تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ٢٥ الأنعام.

قال الماوردي: قيل أنهم كانوا يستمعون في الليل قراءة النبي ﷺ في صلاته [١].

والمعنى: ومن هؤلاء المشركين يا محمد من يستمع إليك حين تقرأ القرآن وقد جعلنا - بسبب عنادهم وجحودهم - على قلوبهم أغطية تحول بينهم وبين فقهه، كما جعلنا في أسماعهم صماً يمنع من سماعه بتدبر وتعقل [٢].

فالذي منعهم عن الإيمان هو الجحود والعناد والاستكبار عن الإنقياد للحق على الرغم من معرفتهم بصدق الرسول وعظمة الكتاب الذي جاء به وما يشتمل عليه من اعجاز ويدلنا على ذلك شهادة الوليد بن المغيرة للقرآن مع شدة عداوته للرسول، وإصراره على الكفر.

فمن حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء رسول الله ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له (أي خضع له) فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً فقال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله.

---

(١) النكت والعيون ١٠٣/٢.

(٢) التفسير الوسيط ٨٠/٥.

قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا.

والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: قف عني حتى أفكر فيه، فلما فكر، قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ (١) (١١ -١٣ المدثر).

وهذا الموقف للوليد بن المغيرة من القرآن وغيره من مواقف المشركين كذهابهم لإستماع القرآن من النبي ﷺ في الليل يدل على أن المشركين وهم من العرب الخلص كانوا يدركون بعربيتهم إعجاز القرآن، وأنه ليس من كلام البشر حتى أن رءوس الكفر من المشركين خافوا من تأثير القرآن على القاعدة العريضة من الناس فيدخلون الإسلام (على القاعدة العريضة من الناس فيدخلوا الإسلام) بعد أن يخالط القرآن قلوبهم وعقولهم عند استماعهم إليه، فأشاروا على الناس بما بينه الله بقوله سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ٢٦: فصلت.

وله: ( وألفوا فيه) من اللغو، وهو الكلام الساقط الذي لا فائدة فيه ...ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن في القلوب، هذا التأثير الذي حمل كثيراً منهم عند سماعه على الدخول في الإسلام ونبذ الكفر والكافرين.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٥٠٧/٢ وقال صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والبيهقي في الدلائل ٥٥٦/١. وقال السيوطي في اللباب ٢٣٨ إسناده صحيح على شرط البخاري. وأنظر البداية والنهاية ٦٠/٣ والبيهقي في دلائل النبوة

كما يدل على أنهم لعجزهم عن معارضته، وعن الإتيان بسورة من مثله لجأوا إلى تلك الأساليب السخيفة لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم[١].

- وهذه المعجزة الكبرى الخالدة - .القرآن - له حق عظيم وواجب كبير على الأمة الإسلامية، ومن المعلوم أن أمة الرسول ﷺ الخاتم تنقسم الى قسمين:

أ - أمة إجابة وهم كل من آمن بالله وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً وبالقرآن دستوراً.

ب - أمة دعوة وهم جميع البشر من غير المسلمين وهم كل من لم يؤمن بدين الإسلام ورسالة سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فتشمل أمة الدعوة اليهود والنصارى والمشركين والمجوس والوثنيين، والدهريين، الذين لا يؤمنون بدين وقد أوجب الإسلام على القادرين من أمة الإجابة من العلماء والمثقفين الأمور الآتية:

١) تعليم عقائد الإسلام وشرائعه ، ومنهج الإسلام سلوكاً وأخلاقاً للمسلمين أولاً.

٢) بليغ دعوة الإسلام لكل من لم تبلغه الدعوة الإسلامية من غير المسلمين وهم الذين يمثلون أمة الدعوة.

٣) إزالة الشبهات والرد على المطاعن التي يوجهها أعداء الإسلام إلى ديننا الإسلامي الحنيف وكتابه العظيم، ورسوله الخاتم.
هذه الشبهات التي تثار حول الإسلام في داخل الأمة الإسلامية وخارجها.

٤) إقامة الحجة بالأدلة القاطعة والبراهين العلمية الواضحة على المعاندين والمستكبرين عن الانقياد للحق، والجاحدين المنكرين لرسالة الإسلام، يقول تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [ الأعراف ١٦٤ ]

---

(١) التفسير الوسيط ٤٥٣/١٢.

ولا يشك الباحثون المنصفون من المثقفين والعلماء المتخصصين أن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم حاز قصب السبق في تجلية الحقائق القرآنية والمبادئ الإسلامية، ودفع شبهات المبطلين ودحض مطاعن المارقين.

فالتفسير الموضوعي يعطي تصوراً كاملاً لكل موضوع عرض له القرآن، الأمر الذي يترتب عليه بيان الحقائق القرآنية ودفع التعارض بين آيات الكتاب أمام القاصرين عن فهم دقائق وأسرار الكتاب العزيز، وإزالة الشبهات، ورد المطاعن في نحور أصحابها، وإقامة الحجج البينات الواضحات على المعاندين المستكبرين من أعداء الإسلام الحاقدين عليه.

ولعل من أكبر الأسباب التي أوقعت الفرق الإسلامية المختلفة في كثير من الضلالات والأخطاء تمسكهم ببعض نصوص الكتاب العزيز، وإغفالهم النظر، وإن شئت فقل - وتركهم النظر عن بقية نصوص القرآن الواردة في نفس الموضوع الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى الخطأ في التصور، وعدم إدراك المسائل العلمية المتعلقة بأمور الاعتقاد وغيرها إدراكاً حقيقياً، ومن هنا تبرز أهمية دراسة التفسير الموضوعي.

فهو يجنب الباحث القصور في الفهم، والخطأ في التصور والتقدير، والانزلاق في مهاوي الضلالات والافتراء على القرآن دستور الرسالة الخاتمة بما هو برئ منه.

وذلك بسبب الاستقراء الناقص والبحث غير المتكامل في فهم المسائل العلمية المختلفة من القرآن.

ولا شك أن الدراسة الموضوعية للقرآن تجنب الباحث الوقوع في هذه المهالك.

# كلمة موجزة عن نشأة علم التفسير

المتأمل في النص الإلهي الحكيم يقف على هذه الحقائق الثوابت، وكبرى هذه الحقائق أن الله خلق الإنسان لعبادته يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاذيات : ٥٦.

ومن المعلوم أن العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه.

فهي عبارة عن تعظيم الله بامتثال أوامره.[1]

وهذه العبارة التي خلق الله الإنسان لأجلها لم يتركه سبحانه يصل إليها، ويتعرف عليها بعقله واجتهاده فيقع في التخبط والخرافة، كما هو حال كثير من الشعوب التي لا تدين بالإسلام، بل أرسل سبحانه الرسل، وأنزل الكتب الإلهية لهداية الإنسان، ولتبين له المنهج والعقيدة والسلوك، يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ البقرة: ٢١٣.

وبين سبحانه أن العذاب الأخروي متوقف على وصول الرسالة إلى الناس عن طريق عباده المرسلين أو الهداة المهديين من الدعاة إلى الله والعلماء والصالحين الذين يقومون ببيان المنهج الإلهي شارحين كتابه المنزل.

يقول تعالى :

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ : الاسراء : ١٥ .

وشاءت الإرادة الإلهية أن يرسل عباده المرسلين من جنس أقوامهم ، حتى تكون لغة التخاطب والتفاهم وتبليغ الدعوة وإقامة الحجة واحدة، وحتى يكون الرسل من أقدر

---

(١) انظر التعريفات للجرجاني ص ١٤٦.

الناس على فهم علل أقوامهم ومداواتها بمختلف السبل والوسائل، وبذلك يكون الرسل من أقدر الناس على تبليغ الدعوة الإلهية عقيدة وشريعة وسلوكاً ومنهاجاً إلى أقوامهم الذين أرسلهم الله إليهم يقول تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إبراهيم : ٤

وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون الرسول المكلف بتبليغ الرسالة من أقدر الناس على تبليغ رسالته لإحاطته بمضمون رسالته ومقاصدها، ولسعة علمه بها[١] ، لذلك كان الرسل عليهم السلام من أقدر الخلق على بيان مراد الله من الكتب المنزلة عليهم لمكانتهم من الوحي الإلهي، ولما يتصفون به من الصفات الواجبة لهم التي ذكرها العلماء في مواضعها من كتب العقيدة، فإذا نظرنا إلى من ختم الله به الرسالات الإلهية في هذا الموضوع نجد الروايات تحدثنا بأن الرسول كان حريصاً على جمع القرآن حفظاً في صدره لدرجة أنه كان يردد الآيات القرآنية بمجرد سماعها من جبريل، ولا ينتظر حتى ينتهي جبريل عليه السلام من تلاوتها جميعاً، فإذا بالقرآن يتنزل عليه ويطمئن قلبه ﷺ بأن الله سيجمع له القرآن حفظاً في صدره مبيناً له ما يشتمل عليه من المعاني وأنواع الهدايات [٢] يقول تعالى:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾

فهذا النص الإلهي يشير إلى أن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالكتاب المنزل عليه من الحق سبحانه جملة وتفصيلاً، وكيف لا يكون الرسول كذلك ومهمته ﷺ التي أرسله الله بها هي تبليغ الرسالة إلى الناس، وبيان معناها لهم، وإن شئت فقل: تبليغ القرآن إلى الناس مع بيان ما يشتمل عليه من أنواع الهدايات وبذلك تكون مهمة الرسل تبليغ النص الإلهي مع بيان مضمونه .

وهذا ما يرشد إليه قول الحق سبحانه:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ النحل : ٤٤

---

(١ ) التفسير والمفسرون للذهبي ٢٦/١

(٢ ) مدخل إلى مناهج المفسرين / ٢٢ و ٢٣

(والذكر: ما أنزل ليقرأه الناس ويتلوه تكراراً ليتذكروا ما اشتمل عليه.... والتبيين: إيضاح المعنى).

والتعريف في (الناس) للعموم.

(وإسناد التبيين إلى النبي عليه الصلاة والسلام باعتبار أنه المبلغ للناس هذا البيان)[1].

## الصحابة والقرآن:

اعتنى الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن عناية فائقة بل امتدت عنايتهم بكل ما يتصل أو يتعلق بالقرآن من حيث حفظ ألفاظه ومعرفة معانيه، والعمل بما جاء فيه بأنهم أيقنوا أن القرآن دستور حياتهم فلا نجاة لهم إلا بالقرآن دستور حياتهم فلا نجاة لهم إلا بالقرآن ولا عز لهم إلا بالتمسك بمبادئ الإسلام، وصدق الفاروق عمر وهو يصور لنا هذه الحقيقة التي أيقن بها الصحابة فوقفوا حياتهم لدينهم يقول عمر بن الخطاب:

لقد أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة في غيره أزلنا الله.

وهذه كتب السنة تنقل إلينا من الروايات ما يصور لنا موقف الصحابة من القرآن:

رُوى عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال:

حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.[2]

فهذه الرواية تبين حرص الصحابة على حفظ القرآن ومعرفة تفسير آياته بفهم ما جاء فيها من المعاني والمبادئ في العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، كما تثبت الرواية شدة حرص الصحابة على العمل بمبادئ القرآن وتوجيهات الإسلام في مختلف شئون الحياة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٣.

(٢) انظر مباحث في علوم القرآن ٣٣٨ (التفسير المأثور والتفسير بالرأي).

وتحدثنا بعض الروايات عن سعة علم كبار الصحابة بتفسير كلام رب العالمين وعظيم حرصهم على الاستزادة من هذا النعيم الذي لا ينضب لونما إلى علمهم معرفة من هو أكثر علماً منه في هذا المجال أخرج الطبري وغيره عن ابن مسعود قال:

والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته.

وروى معمر عن وهب بن عبد الله، عن أبي الطفيل قال: (شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني، فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل.[1]

ولا شك أن المتأمل في حياة الصحابة يشاهد عن قرب عظيم حرص الصحابة الكرام وشدة تعلقهم بالقرآن وبكل ما يتعلق به .

فكان الذي يذهب إلى مسجد رسول الله ﷺ يسمع ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم الرسول ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا.

وكان الذي يمر على بيوت الصحابة في الليل يسمع دوياً كدوي النحل من كثرة قراءتهم للقرآن في بيوتهم بالليل وكان النبي ﷺ يتعرف على بيوت الصحابة ومنازلهم من خلال أصواتهم بقراءة القرآن في ظلمة الليل.

ويمكن القول من خلال ما سبق من الروايات وغيرها أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يفهمون القرآن جملة فيعرفون ما إشتمل عليه من عقائد وعبادات ومعاملات وأحكام، وآداب، وأما دقائق القرآن، وأسراره فيتفاوتون فيها بقدر ما يفتح الله لهم من المعرفة في هذا الباب للأسباب الآتية:

(١) فلا يحيط بجميع اللغة ويعلم جميع أسرارها إلا معصوم علمه الله جميع ذلك، فاللغة العربية أداة من أدوات فهم القرآن، ولم يكن الصحابة على درجة سواء في معرفة اللغة لذلك تفاوتوا في فهم القرآن تبعاً لتفاوتهم في معرفة اللغة.

---

(١) مباحث في علوم القرآن /٢٣٤.

(٢) هناك من معاني القرآن ما تتوقف معرفته على سؤال النبي وبيانه، وهناك من معاني القرآن ما لا يدرك ويعرف إلا بالبحث والنظر والاستنباط والمقارنة.

(٣) كما أن الصحابة تتفاوت مراتبهم ودرجاتهم في الإدراك العقلي، كما هو شأن الناس في كل زمان ومكان.

لذلك تفاوتت أقدارهم في فهم القرآن.

كما تفاوت الصحابة في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات.[١]

فمن كثرت ملازمته للنبي ﷺ زاد علمه بأحوال نزول القرآن، وما صاحب نزول بعض الآيات من الظروف والملابسات المختلفة التي تجعل بعض الصحابة يتميز على بعض بمعرفة دقائق القرآن.

وقد وردت بعض الروايات التي تثبت أن بعض الصحابة كان يغيب عن الواحد منهم ما لا يغيب عن الآخر من معرفة بعض المعاني الواردة في القرآن.

أخرج أبو عبيد في (الفضائل) عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا - ٣١) عبس فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.

وأخرجه أبو عبيدة من طريق عن ابن عباس: كنت لا أدري ما (فاطر السموات والأرض) حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: (أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأته). [٢]

وهناك من الروايات التي تشير إلى تفاوت الصحابة في الفهم والإدراك العقلي، وهذا فضل الله يختص به من يشاء من عباده، فورد فيما رواه البخاري: من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ : البقرة : ١٨٧.

---

(١) التفسير والمفسرون / ٢٦ و ٣٧ و ٣٨ ، وانظر مدخل إلى مناهج المفسرين/٤٢.

(٢) الإتقان ٢ باب التفسير ١٢٧/٨ فتح الباري، التفسير والمفسرون ٢٨/١.

وبلغ من أمره أن أخذ عقالاً أبيض وعقالاً أسود فلما كان بعض الليل، نظر إليها فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول ﷺ بشأنه فعرض بقلة فهمه، وأفهمه المراد.(١)

وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال ما تقولون في قول الله عز وجل (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي (أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت:

هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال (إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً (فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.(٢)

فهذه الرواية تشير إلى دقة فهم ابن عباس والفاروق عمر عن غيرهما من الصحابة الكرام الذين وجه عمر بن الخطاب السؤال إليهم، وهذا يدل دلالة واضحة على تفاوت أقدار الصحابة في فهم دقائق القرآن الكريم.

وفي هذا المقام يشير ابن قتيبة إلى هذه الحقيقة التي نص عليها أهل العلم بالقرآن فنجده يقول (إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك عن بعض)(٣)

ويؤيد ما ذكرته من أقوال أهل العلم في هذا المقام ما ورد عن مسروق.

قال: جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالأخاذ - يعني الغدير - فالأخاذ يروي الرجل، والأخاذ يروي الرجلين، والأخاذ يروي العشرة، والأخاذ يروي المائة، والأخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.(٤)

---

(١) البخاري باب التفسير ١٢٧/٨ فتح الباري، التفسير والمفسرون ٣٨/١.
(٢) صحيح البخاري (٤٩٧٠).
(٣) انظر مشكلة القرآن لابن قتيبة / والمعارف لابن قتيبة والتفسير والمفسرين ٣٨/١.
(٤) المذكرة تاريخ التشريع الإسلامي ص ٨٤، التفسير والمفسرين ٣٨/١.

وأما ابن خلدون فمع غزارة علمه، وسعة معارفه ودقته في التحليل فلم يحالفه التوفيق ويعلل الدكتور/ مصطفى مسلم ما ذهب إليه الفريق الأول من أهل العلم بقوله:

(ويأتي بعد فهم الرسول ﷺ للقرآن الكريم فهم الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان فهمهم له جملة لظاهرة على الإجمال ولأحكامه على التفصيل، وليس من الضروري إحاطتهم التامة بمعاني القرآن الكريم بحيث لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة (..... فإن في بحث هذه الأمور التي لا ينبني عليها حكم عملي تكلفاً لا فائدة منه، لذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يكتفون فيما يتعلق بالجوانب النظرية من فروع العقائد، أو ما يتعلق بسير الأمم أو تخليق السموات والأرض، فكانوا يكتفون بموطن العظة والعبرة ومجمل الاعتقاد فيها بل جاء النهي القرآني الصريح عن الخوض في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في إطار الأحكام العملية، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ المائدة ١٠١:١٠٢

كما ورد عن رسول الله النهي عن الاستفسارات التي لا يكون لها واقع عملي في حياة المسلمين يقول عليه الصلاة والسلام :

(إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته)[١]
وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

(ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم).[٢]

وفي الحديث الآخر الصحيح: إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها)[٣]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام ١٤٢/٨/ مسلم في كتاب الفضائل ٩٢/٧.
(٢) مسلم في صحيحه كتاب الفضائل ٩١/٧.
(٣) أخرجه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه، أنظر الدر المنثور للسيوطي ٢٠٨/٣..

والحكمة الإلهية في ذلك - والله أعلم - أن انصراف الأمة إلى الأمور النظرية والفرعيات التي لا ترتبط بالأحكام العملية يؤدي إلى الفرقة والنزاع وإلى الجدل العقيم والترف الثقافي، والأمة الإسلامية أمة جهاد ودعوة وعمل فلا يليق بها مثل هذه المشاغل، وبخاصة في الصدر الأول وفي مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية[١]

وأما ابن خلدون فمع غزارة علمه، وسعة معارفه ودقته في التحليل، فلم يحالفه التوفيق حين ذكر في مقدمته أن الصحابة الكرام كانوا على درجة واحدة في فهم القرآن، وذلك لمكانتهم من اللغة العربية، فهم العرب الخلص أهل الفصاحة وأساطين البلاغة والبيان، فنجده يقول في مقدمته:

(إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)[٢]

ولكن الروايات سالفة الذكر الواردة عن كبار الصحابة والتابعين والتي أيدنا بها الإتجاه الأول في هذا الموضوع لا تؤيد قول ابن خلدون، بل على العكس تماماً فهي تشهد بغير ما ذهب إليه، وتؤيد الاتجاه الأول الذي ذهب إليه جمهور أهل العلم في هذا المجال.

(١) أنظر مباحث في التفسير الموضوعي ١٠/١١.
(٢) مقدمة ابن خلدون /٤٨٩.

# التفسير في عصر التابعين

الدولة اتسعت رقعة الدول الإسلامية، وكثرت الفتوحات الإسلامية وانتشر الإسلام في ربوع الأرض ودخل الناس في دين الله أفواجاً وزادت حاجتهم إلى تفسير كلام رب العالمين.

وهكذا كلما ابتعد الناس عن عصر النبوة الخاتمة وزمن نزول الوحي، كلما ازدادت حاجتهم إلى التفسير بقدر أكبر ممن سبقهم لبعدهم عن عصر نزول الوحي حيث المعرفة بملابسات نزول القرآن كالعلم بأسباب النزول والمكي والمدني والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ إلى غير ذلك من المعارف المتعلقة بالقرآن.

ويوضع في الاعتبار أن الذين عاصروا نزول الوحي كانوا من أرباب الفصاحة والبيان، وكانوا يمتلكون ناصية اللغة في معظمهم، وهذا على عكس غيرهم ممن جاء بعدهم من أهل العصور الأخرى المتأخرة عن عصر نزول الوحي.

ويمكن القول بأن التفسير قد اتسعت دائرة الحاجة إليه في عصر التابعين بصورة أكبر من ذي قبل لدخول أقوام في الإسلام ممن لم تكن لديهم خلفية عن الثقافة الإسلامية، بل كان لكثيرين منهم خلفية كبرى بثقافة أهل الكتاب ممن اعتنقوا عقائد اليهود أو النصارى قبل الدخول في الإسلام.

كما ولد في الإسلام جيل لم يكن على علم تام ودراية كاملة باللغة العربية وأساليبها المختلفة ودلالات التراكيب فيها، أو بعبارة أخرى: فلم يكونوا على قدر الصحابة في المعارف اللغوية والتفسيرية.

**أقوال أهل العلم**

ويمكن جمع أقوال أهل العلم عن التفسير في عصر التابعين في الأمور الآتية:

(١) لم يفسر النبي وأصحابه القرآن كله كلمة كلمة بل فسروا ما غمض فهمه واحتاج إلى بيان، فلما جاء عصر التابعين زادوا في التفسير ما كان غامضاً بالنسبة لعصرهم وهو كثير، فهذا العصر يتميز بزيادة الحاجة إلى علم التفسير بقدر أكبر من عصر الصحابة نظراً لبعد عصر التابعين عن عصر النبوة.

(٢) ومن سمات هذا العصر كثرة ما دخل علم التفسير فيه من الوضع، ودخله أيضاً الرواية والنقل عن طريق أهل الكتاب بسبب انتشار الإسلام ودخول الكثيرين من أهل الكتاب فيه، وبذلك تسللت الإسرائيليات إلى علم التفسير بصورة كبيرة وكانت هذه الإسرائيليات تتعلق ببدء الخلق وأسرار الوجود، وبدء الكائنات، وكثير من القصص، وتفصيل ما جاء من أخبار القرون الأولى والأمم السابقة، والأنبياء مع أممهم وقد تصدى لهذا الباطل أعني الوضع في الحديث والتفسير والإسرئليات المخالفة لما جاء في الكتاب والسنة جماعة من العلماء أهل الحق لا يخلو منهم زمان أو مكان كشفوا زيف كل باطل وصل إلى العلم الشريف ونقدوه وفندوه بالأدلة الدامغة والحجج والبراهين.

(٣) يبدأ عصر التابعين بموت آخر الصحابة رضوان الله عليهم، ويتميز عصر التابعين عن عصر الصحابة في علم التفسير باتساع دائرة الرأي فيه، وبكثرة مسائله، وكثرة الخلاف فيه، ولكنه لم يكن خلاف تناقض أو تضاد غالباً، بل كان من قبيل خلاف التنوع، فكل منهم أشار إلى أحد المعاني الموجودة في النص لم يذكره الآخر، والنص القرآني يحتمل المعاني جميعاً، أو اختلفت ألفاظهم واتحدت معانيها فهي أقوال متقاربة أو مترادفة فهي من باب اختلاف العبارة لا اختلاف التباين والتضاد.

(٤) التابعون تلاميذ الصحابة نقلوا عنهم علم السنة رواية، وكان يشتمل ضمن ما يشتمل على روايات التفسير، وظلت هذه الروايات يتناقلها الناس عن طريق الرواية والسماع بالسند المتصل إلى راويها عصر الصحابة كله وغالب عصر التابعين إلى أن دون التفسير بإعتباره باباً من أبواب رواية الحديث وذلك منذ

بداية عصر التدوين، ويبدأ من أواخر الدولة الأموية، وبداية الدولة العثمانية، فلا شك أن عصر التابعين يتميز بأنه عصر بداية تدوين علم التفسير فيه.

**٥ - وقد تصدى لعلم التفسير جماعة من كبار التابعين كان منهم:**

سعيد بن جبير، وعلي بن أبي طلحة، ومجاهد بن جبر وعكرمة البربري مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح، وزيد بن أسلم وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي وعلقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي وغيرهم كثير.

وقد تتلمذ هؤلاء الأعلام على كبار المفسرين من الصحابة كابن عباس وأبي بن كعب وابن مسعود وغيرهم.

**٦ - ومن سمات هذا العصر ظهور المتخصصين من التابعين وأتباع التابعين في نقل الروايات المتعلقة بالتفسير خاصة وهم: -**

١ - الإمام مجاهد بن جبر وتفسيره مطبوع.
٢ - الإمام يزيد بن هارون السلمي المتوفى ١١٧ هـ.
٣ - الإمام شعبة بن الحجاج المتوفى ١٦٠ هـ.
٤ - الإمام وكيع بن الجراح المتوفى ١٩٧ هـ.
٥ - الإمام سفيان بن عينية المتوفى ١٩٨ هـ وتفسيره مطبوع.
٦ - الإمام يحيي بن سلام المتوفى ٢٠٠ هـ وتفسيره مطبوع.
٧ - الإمام روح بن عبادة البصري المتوفى ٢٠٥ هـ.
٨ - الإمام عبد الرازق بن همام الصنعاني المتوفى ٢١١ مطبوع.
٩ - الإمام آدم بن إياس المتوفى ٢٢٠ هـ.
١٠ - الإمام عبد بن حميد المتوفى ٢٤٩ هـ.

ولم تصل إلينا معظم التفاسير المنسوبة إلى هؤلاء العلماء وإنما رويت بعض مروياتهم في كتب التفسير المأثور.

**إفراد التفسير بالتأليف**

المتتبع لجهود علماء الأمة في تفسير كلام رب العالمين منذ بدايات عصر تدوين التفسير يقف على هذه الحقيقة وهي أنهم فسروا القرآن فجمعوا ما وصل إليهم من روايات تفسيرية ورتبوها على ترتيب المصحف، فتفاوتت مروياتهم التي جمعوها في التفسير قلة وكثرة ولعل أكثر التفاسير جمعاً للرويات التفسيرية في هذه المرحلة تفسير الامام يحيي بن سلام ١٢٤ -٢٠٠هـ وهو يعتبر همزة الوصل ما بين عصر التابعين، وعصر الامام الطبري م٣١٠هـ والذي جمع فاستوعب، وتفسيره يعد أكبر موسوعة علمية في التفسير المأثور، ويمكن ترتيب جهود علماء التفسير زمنياً بذكر أعمالهم التفسيرية على النحو التالي:

١ - الإمام مجاهد بن جبر، وتفسيره مطبوع.

٢ -الإمام سفيان بن عيينة م١٩٨ هـ مطبوع.

٣ -الإمام يحيي بن سلام م٢٠٠ هـ مطبوع.

٤ -الإمام عبد الرازق بن همام الصنعاني م ٢١١ هـ مطبوع.

٥ -الإمام النسائي صاحب السنن.

٦ - الإمام عبد بن حميد م٢٤٩ هـ.

٧ - الإمام ابن ماجة م ٢٧٣ هـ.

٨ - الإمام الطبري م ٣١٠ هـ.

٩ - أبو بكر بن المنذر النيسابوري م ٣١٨ هـ.

١٠ - ابن أبي حاتم م ٣٢٧ هـ.

١١ -أبو الشيخ بن حبان ٣٦٩ هـ.

١٢ - الحاكم م ٤٠٥ هـ.

١٣ - أبو بكر بن مردوية م ٤١٠ هـ.

وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ، وإلى الصحابة والتابعين وأتباع التابعين مع الترجيح أحياناً فيما يروى من آراء واستنباط بعض الأحكام، والإعراب عند الحاجة كما فعل الطبري.

ويعلق الدكتور/ مصطفي مسلم على جهود علماء التفسير في هذه المرحلة بالعبارات الآتية:

(وكان إلى هذا العهد يجمع التفسير على أنه باب من أبواب الحديث، يُدوّن فيه ما روى عن رسول الله ﷺ أو كبار الصحابة مما يتعلق بتفسير آية أو آيات ولم يبحث عن تفسير كل آية من آيات القرآن الكريم وإنما يُذكر فيه ما ثبت بطريق السند نسبته إلى رسول الله ﷺ أو أحد الصحابة).

ولم نجد تفسيراً مستقلاً للقرآن الكريم تتبع القرآن سورة سورة أو آية آية قبل بداية القرن الثالث الهجري، على الرغم من أن روايات تذكر أن مجاهداً المتوفى سنة ١٠٤ هـ سأل ابن عباس ومعه ألواحه، فكتب تفسير القرآن كاملاً، إلا أن التفسير المطبوع لا يختلف عن التفاسير المأثورة لآيات متفرقة.

كما قيل إن سعيد بن جبير سنة ٩٤ هـ كتب تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، كما يقال إن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة كتب تفسيراً للقرآن عن الحسن البصري م١١٦ هـ.

إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذه الروايات لأن هذه التفاسير لم يصلنا منها إلا القليل، ووصلت أجزاء من بعضها.

ولعل أقدم تفسير كامل لآيات القرآن الكريم، وصلنا وتحت أيدينا، هو تفسير شيخ المفسرين ابن جرير الطبري سنة ٣١٠ هـ.

ثم توالت المؤلفات في التفسير وتشعّبت ألوانها حسب اتجاهات أصحابها والفنون التي أجادوا فيها فمن امتلك منهم ناصية اللغة واغترف من بحارها وأتقن فنونها وآدابها انعكس ذلك على تفسيره للقرآن، فنجده يبرز الإعجاز القرآني في مفرداته وتراكيبه معتنياً بإيضاح أسرار البلاغة القرآنية.

ومن غاص منهم في بحار الفقه الإسلامي، ووقف على دقائقه وأسراره ظهر ذلك في تفسيره للقرآن فاعتنى عناية كبرى ببيان أحكام القرآن وحكمة التشريع الإسلامي، ومقاصد شريعتنا السمحة، وهكذا تختلف التفاسير القرآنية باختلاف مشارب أصحابها، وباختلاف ما أجادوه من فنون وعلوم. إلا أن الذي يهمنا هنا.

هل كان بين تلك المؤلفات ما نطلق عليه اليوم اسم التفسير الموضوعي؟

وقبل البدء باستعراض تلك المؤلفات لنتعرّف على المراد من مصطلح (التفسير الموضوعي).[1]

(١) مباحث في التفسير الموضوعي /١٥.

# تعريف التفسير الموضوعي

١ - يتألف هذا المصطلح العلمي (التفسير الموضوعي) من كلمتين ركّبا تركيباً وصفياً، ولابد من تعريف كل الكلمتين في هذا المركب الوصفي، ثم نشرع في بيان معنى هذا المصطلح (التفسير الموضوعي).

**أولاً: تعريف التفسير:**

التفسير في اللغة: مبالغة من المفسر، وهو الكشف والبيان يقال: فسَّر - يفسِّر - تفسيراً.

(فَسَّرَ) الشيء) وضّحه، وآيات القرآن الكريم: شرحها ووضح ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام.

وقال الراغب: التفسير إظهار المعنى المعقول. [1]

**التعريف الاصطلاحي للتفسير:**

يعرف الإمام أبو حيان علم التفسير بهذه العبارة:

(علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك).

ثم يشرح أبو حيان التعريف بقول: (فقولنا: علم، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، هذا هو علم القراءات، وقولنا: ومدلولاتها، أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا وأحكامها الإفرادية والتركيبية هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيار وعلم البديع، وقولنا: ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، يشمل مادلالته عليه

(١) انظر ماد (فسر) في ترتيب القاموس المحيط والمعجم الوسيط ٢/٦٩٥.

بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صادّ فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: وتتمات لذلك، هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك.[١]

٢ - وأما الإمام الزركشي فيعرف التفسير بقوله:

(لتفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد وذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ)[٢]

٣ -وقال الدكتور / محمد حسين الذهبي بعد أن ساق عدة تعاريف لعلم التفسير وهذه التعاريف تتفق كلها على أن علم التفسير علم يكشف به عن معاني آيات القرآن، وبيان المراد لله سبحانه وتعالى بقدر الطاقة البشرية[٣].

فهذا التعريف شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد من العلوم والمعارف المعينة على فهم نص القرآن.

**ثانياً: تعريف الموضوع:**

الموضوعي لغة: نسبة إلى الموضوع، والموضوع مشتق إلى الوضع يقال: وضع - يَضَعُ وضعاً، وموضوعاً:

والوضع (جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك معنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان).

---

(١) البحر المحيط ١٣/١ -١٤.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي / . الإتقان للسيوطي النوع السابع والسبعون ١١٩١/٢.
(٣) التفسير والمفسرون ١٧/١.

الأول : وضع مادي وحسي، ومنه: وضعه على الأرض بمعنى حطه وإلقائه وتثبيته عليها.
الثاني : وضع معنوي ، ومنه الوضيع، وهو الدنئ المهان الذليل، الذي قعدت به همته أو نسبُه فكأنه ملقي على الأرض، موضوع عليها ، لا يفارق موضعه الذي التصق به.

والنوعان يلتقيان على البقاء في المكان وعدم مغادرته .وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين وموضوع محدد من موضوعات القرآن؟ يبقى معه، ولا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ منه. (١)

**تعريف الموضوعي اصطلاحاً** : والموضوعي في الاصطلاح عبارة عن قضية، أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم.

**-التعريف العلمي لمصطلح ( التفسير الموضوعي ) :**

ينبغي علينا قبل ذلك ذكر التعريف العلمي لمصطلح التفسير الموضوعي أن نشير إلى أن التفسير الموضوعي بهذا العنوان من المصطلحات التي استخدمها العلماء والباحثون حديثاً فهو من المصطلحات المعاصرة أطلقه الدارسون على الأبحاث والدراسات التي تتناول موضوعاً من موضوعات القرآن.

ولعل أنسب تعريف لهذا المصطلح المعاصر ما ذكره الدكتور/ مصطفى مسلم بقوله (هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر)

وعرفه بعضهم بقوله:
(و جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن، المتعلقة بالموضوع الواحد، لفظاً أو حكماً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية).

---

(١ ) انظر مادة (وضع) المعجم الوسيط ١٠٥١/٢ ، المدخل إلى التفسير الموضوعي د. عبد الستار سعيد ٢٠ -٢٢. مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم / ١٥.

إن التفسير الموضوعي علم ، له قواعد وأسس وأصول وله منهج وطريقة يلتزم بها الباحث يقوم الباحث بجمع الآيات التي تبحث في موضوع واحد ، أو مصطلح واحد ، من مختلف السور ، سواء كانت هذه الآيات تتحدث عن نفس المصطلح ، أو تتحدث عن مصطلحات وألفاظ مقاربة له ، وهذا معنى قوله (لفظاً أو حكماً).

وبعد ذلك يقوم الباحث بتفسير هذه الآيات تفسيراً موضوعياً وليس تفسيراً تحليلياً ، وذلك حسب المقاصد القرآنية ، ليحقق مقاصد القرآن وأهدافه الأساسية ، من خلال بحثه الموضوعي في تلك الآيات.[1]

وخلاصة القول : أن التفسير الموضوعي يتناول القضايا القرآنية على حسب مقاصد القرآن عن طريق جمع الآيات المتفرقة ذات الموضوع الواحد في سور القرآن وتفسيرها ، وذلك لبيان ما يتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية ، للخروج بنظرية قرآنية بصدده.

(١) مباحث في التفسير الموضوعي /١٦. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق د. صلاح عبد الفتاح /٢٩.

## الجذور التاريخية لنشأة التفسير الموضوعي

التمس الباحثون والدارسون لهذا (التفسير الموضوعي) بداياته الأولى ولبناته التي وضعت، ويمكن اعتبارها الأساس الاول لنشأة هذا العلم، فالتمسوا ذلك منذ نشأة التفسير في عصر النبي ﷺ.

فوجدوا هذا النوع من التفسير، الذي أطلق عليه العلماء:

**أولاً: تفسير القرآن بالقرآن[1]:**

ومن نماذج ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزل قول الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [ الأنعام ٨٢ ].

شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ليس هو كما تظنون:

إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٣ - لقمان.

فالرسول ﷺ أزال اللبس عن آية سورة الأنعام بذكر آية سورة لقمان.

لقد حمل الصحابة الظلم على المعصية وهم يعلمون أنهم غير معصومين فإذا كان الظالم أي العاصي لا ينجو، فلن ينجو أحد من الصحابة.

فذكر لهم الرسول عليه الصلاة والسلام آية سورة لقمان، التي تخصص الظلم في هذا الموطن بالشرك لأن لقمان قال لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم.

---

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية /١٢٧.

فالمراد بالظلم في آية سورة الأنعام هو الشرك.

إن هذا التفسير من رسول الله ﷺ هو تفسير للقرآن بالقرآن، وهو لبنة من لبنات التفسير الموضوعي.[١].

أخرج البخاري أن رسول الله ﷺ فسرّ مفاتح الغيب في قوله تعالى:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام : ٥٩.

وهذا النوع من التفسير وضع العلماء له قاعدة علمية ينطلق منها المفسر ويراعيها عند تفسيره لكلام رب العالمين، فهذا الإمام ابن تيمة يقنن لهذه القاعدة بقوله:

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب : (إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن ، فما أجمل[٢] في مكان فإنه قد فسر موضع آخر وما اختص في مكان فقد بسط في موضع آخر)[٣]

ومن أبرز تلك الأمثلة قوله تعالى في سورة النحل :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ النحل : ١١٨ .

فقد أفادت الآية الكريمة أن ما حُرم على اليهود قد قصّه الله سبحانه وتعالى على نبيه وبالرجوع إلى الآية التي ورد فيها ذكر المحركات عليهم، نجد أن آية الأنعام قد فصلت الإجمال، وأزالت ذلك الإبهام في قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ الأنعام: ١٤٦

---

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية /١٢٧.

(٢) المجمل : ضد المفسر ، فهو اللفظ الذي يمكن استعمال حكمه عند وروده ويكون موقوفاً بيان من غيره. انظر مصطلحات أصول الفقه ١٢٦٥/٢.

(٣) مقدمة في أصول التفسير /١٢٧.

وكذلك ما يتعلق بالمحرمات من بهيمة الأنعام على هذه الأمة نجد في ذلك عدة آيات : كقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ المائدة : ١

وقد جاء تفصيل هذه المحرمات في عدة آيات كقوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أُهِل لغير الله به) الأنعام : ١٤٥.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة : ١٧٢ -١٧٣

وقوله تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ المائدة : ٣

**ثانياً** : ومن البدايات الأولى للتفسير الموضوعي ما ورد من الروايات عن الصحابة رضوان الله عليهم، والتي يجمع فيها الصحابة بين الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض بين نصوص القرآن، وهذا العلم قد ازدهر وأطلق عليه العلماء (مُوهم الاختلاف والتناقض) ومن هذه الروايات:

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ: فقد قال الله: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ المؤمنون١٠١. وقال الله:﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ الصافات: ٥٠ . وقال الله ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ النساء : ٤٢ وقال الله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ -٢٣ الأنعام. فقد كتموا في هذه الآية.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ النازعات : ٢٧ - ٣٠

فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض .وقال الله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت : ٩ -١١.

وقال الله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء : ١٠٠.

وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء : ١٥٨

وقال الله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ النساء : ١٣٤.

فكأنه كان هكذا ، ثم مضى.

فقال ابن عباس: قوله: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ في النفخة الأولى، وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ في النفخة الثانية.

وإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، عند ذلك يقول المشركون : تعالوا نقول: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فيختم الله على أفواههم .وتنطق أيديهم، عند ذلك يعرفون أن الله لا يُكتم حديثاً ، وهذا قوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

وخلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء . ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودُحُوها بأن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينها في يومين آخرين.

فذلك قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فجعلت أعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين .وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ إن الله سمي نفسه بذلك، وذلك قوله، وهو لم يزل كذلك، فآن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد.

(فلا يختلف عليك القرآن، فإنه كله من عند الله)..

وذكر ابن حجر في شرح الأثر أن الذي سأل ابن عباس عن هذه الآيات هو نافع بن الأزرق، رأس الخوارج الأزارقة كما أورد قول نافع لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ أي تُشكل وتضطرب، لأن بين ظواهرها تدافعاً.

فقال له ابن عباس : ما هذا؟ شك في القرآن؟ فأجاب نافع: ليس بشك، ولكنه اختلاف.

فقال له ابن عباس : هات ما اختلف عليك.

وقد وضح ابن حجر خلاصة الأسئلة والأجوبة، فقال:

(وحاصل ما وقع السؤال عنه أربعة مواضيع):

**الأول :** نفى المساءل يوم القيامة، وإثباتها.

**الثاني:** كتمان المشركين حالهم، ثم إفشاؤه.

**الثالث:** خلق السموات والأرض، أيها كان أولاً.

**الرابع:** الإتيان بحرف (كان) الدال على الماضي، مع أن الصفة لازمة.

**وحاصل جواب ابن عباس:**

عن الأول: أن نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية، وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثاني: أنهم يكتمون بألسنتهم، فتنطق أيديهم وجوارحهم.

وعن الثالث : أن الله بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة، ثم خلق السماء فسواها في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض.

وعن الرابع : بأنّ كان (وإن كانت للماضي، لكنها لا تستلزم الانقطاع، بل المراد أن الله لم يزل كذلك)[١].

وينفي ابن عباس ما يوهم ظاهره التعارض بين قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ١٨٥ - البقرة.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ١ : القدر.

وقوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ ٣ : الدخان.

وبين الواقع العملي في حياة الرسول ﷺ بنزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان:

عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال: (أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾. وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾.

وهذا أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي محرم، وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم[٢] رسلاً [٣] في الشهور والأيام[٤].

## ثالثاً:

وقد أعتبر الباحثون عن نشأة التفسير الموضوعي ما قام به فقهاء الإسلام من جمع آيات الأحكام المتعلقة بكل باب من أبواب كتب الفقه الإسلامي وشرحها والتوفيق بينها ،

---

(١ ) فتح الباري لابن حجر ٥٥٧/٨ -٥٥٨ وانظر الإتقان في علوم القرآن ٧٢٤/٢.

(٢ ) مواقع النجوم: أي على مثل مساقطها في نزوله مفرقا يتلو بعضه بعضاً.

(٣ ) رسلا : أي تؤدة ورفق.

(٤ ) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات/ ، وابن مردويه في تفسيره انظر الإتقان في علوم القرآن النوع السادس عشر ١٣٠/١، مباحث في علوم القرآن للقطان/٩٨.

واستنباط الأحكام المختلفة منها: فقد اعتبروا هذا الجهد الذي بذل له فقهاء الإسلام في هذا الميدان من المراحل الأولى لنشأة علم التفسير الموضوعي[1].

وذلك كجمعهم للآيات المتعلقة بالصلاة في كتاب الصلاة، والآيات المتعلقة بالزكاة أو الحج أو البيوع أو الأحوال الشخصية وأحكام الأسرة أو الحدود والجنايات، أو العلاقات الدولية، في مواضعها المختلفة من كتب الفقه مع الشرح والتحليل وبيان المراد فهذا لون من التفسير الموضوعي في بداياته الأولى وإن لم يكن كالتفسير الموضوعي في عصرنا الحاضر.

**رابعاً: إفراد بعض علوم القرآن بمؤلفات خاصة:**

خطى علماء التفسير خطوة أخرى، أبعد من الخطوة السابقة وهي تمهيد للتفسير الموضوعي الذي نعنيه .حيث قام بعض العلماء بجمع الآيات القرآنية، التي تندرج ضمن مبحث من مباحث علوم القرآن، وإفراد مؤلف خاص بها.

فقد ألف قتادة بن دعامة السدوسي كتاباً في الناسخ والمنسوخ في القرآن، وتوفي قتادة في (١١٨ هـ) كما ألف أبو عبيد القاسم بن سلام٢٢٤ هـ كتاباً في الناسخ والمنسوخ ايضاً. كما ألف يحيي بن سلام البصري (توفي ٢٠٠هـ) كتاباً في الأشباه والنظائر وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٩هـ) كتاباً في مجاز القرآن وألف على بن المديني (٢٣٤هـ) كتاباً في أسباب النزول .وألف أبن قتيبة (٢٧٦هـ) كتابه في تأويل مشكل القرآن وألف أبو بكر السجستاني (٣٣٠هـ) كتاباً في غريب القرآن وألف أبو بكر الجصاص الحنفي (٣٧٠هـ) كتاباً في أحكام القرآن وفي القرن السادس ألف الكيا الهرّاسي الشافعي (٥٠٤ هـ) كتاباً في أحكام القرآن، وألف القاضي أبو بكر بن العربي المالكي (٥٤٣هـ) كتاباً في أحكام القرآن.

وفي القرن السابع ألف العز بن عبد السلام (٦٦٠هـ) كتاباً في مجاز القرآن.

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم /١٩.

وفي القرن الثامن ألف ابن القيم (٧٥١هـ) كتاباً في أقسام القرآن.

وهكذا تتابع العلماء على التأليف في موضوعات خاصة من علوم القرآن على مدار القرون، وهذه المؤلفات تصلح أن تكون لبنات في التفسير الموضوعي، وإن لم تكن من التفسير الموضوعي بالمعنى الذي نعنيه[1].

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق /٣٥.

# الاتجاه اللغوي في التفسير الموضوعي

يرى بعض الباحثين المتخصصين في الدراسات القرآنية أنه يمكننا اعتبار تلك الدراسات المتعلقة بدلالة اللفظة القرآنية في سور القرآن المختلفة وهو ما يسميه العلماء (بالأشياء والنظائر) أو بعبارة أخرى ما اتحد لفظه واختلف معانيه تفسيراً موضوعياً للفظة والكلمة القرآنية وكان الغالب على المؤلفات في هذا الموضوع الجانب اللغوي للكلمات الغريبة التي تتعدد دلالاتها حسب الاستعمال.

فهذه الدراسات تمثل الجانب اللغوي للتفسير الموضوعي فهذا هو الدكتور/ مصطفى مسلم يعرض هذه الفكرة بقوله: (وقد أخذت هذه الدراسات اتجاهاً آخر في نفس الوقت وهو الاتجاه اللغوي، وذلك بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة.

(١) فقد ألف مقاتل بن سلميان البلخي المتوفى ١٥٠هـ كتاباً سماه (الأشياء والنظائر في القرآن الكريم)، وذكر فيه الكلمات التي اتحدث في اللفظ واختلف دلالاتها حسب السياق في الآيات الكريمة.

(٢) وألف الإمام يحيي بن سلمان ٢٠٠هـ كتابه (التصاريف) تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معاينة على طريقة كتاب الأشباه والنظائر.

(٣) وكتاب الدامغاني المتوفى ٤٧٨هـ بعنوان (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم).

(٤) وألف الراغب الأصفهاني م ٥٠٢هـ كتابه (المفردات في غريب القرآن) حيث تتبع مادة الكلمة القرآنية وبين دلالاتها في مختلف الآيات.

(٥) ثم ألف ابن الجوزي م ٥٩٧ هـ كتابه (نزهة الأعين النواضر في علم الوجوه والنظائر).

(٦) كتاب الفيروز أبادي م ٨١٧هـ بعنوان: (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز).

(٧) وكتاب ابن العماد م ٨٨٧هـ بعنوان : (كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر).

## دراسة قرآنية :

اتجهت أنظار الباحثين والدارسين إلى القضايا القرآنية المتنوعة لبيان وتجلية أنواع الهدايات القرآنية للبشر جميعاً لإثبات حقائق القرآن في العقيدة والمنهج والسلوك.

فظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية واحدة من قضايا القرآن الكريم مبينة موقف القرآن منها ومثبتة الحقائق العلمية القاطعة عن هذه القضية التي يقوم الباحث بدراسته من خلال نصوص القرآن، ولعل أول من اتجهت أنظارهم إلى هذا اللون من القضايا القرآنية طائفة من العلماء الأجلاء بقسم التفسير بكلية أصول الدين بالقاهرة، وان يرأس هذا القسم فضيلة الأستاذ الدكتور/ أحمد السيد الكومي يرحمه الله تعالى.

ثم جاء بعده إخوانه من العلماء الأجلاء فوجهوا أنظار الطلاب والباحثين والدارسين بالدراسات العليا لتسجيل موضوع الماجستير أو الدكتوراه في موضوع أحد من موضوعات وقضايا القرآن الكريم، وللوقوف على هذه الحقيقة يمكن مراجعة مكتبة كلية أصول الدين وسجلات الدراسات العليا للنظر في هذه الوسائل المختلفة وتاريخ التسجيل فيها وتاريخ مناقشة هذه الرسائل العلمية المختلفة ثم تتابعت هذه الدراسات القرآنية التي تعالج القضايا المختلفة، والتي تمس حاجة المجتمعات الإسلامية إلى معرفتها وبيان موقف القرآن منها، حتى صارت كالموج الزاخر.

ولعل أطماع المستعمرين في خيرات وثروات الشرق الأوسط مهبط الرسالات الإلهية وموقع بلاد الأمة العربية، وما يثيره المستعمرون من فتن متتابعة في هذه المنطقة منذ أقدم العصور وغلى وقتنا الحاضر فهذا هو القرآن يسجل هذه الحقيقة التاريخية التي

عاصرت نزل الوحي وهي : أن هذه المنطقة كانت تتقاسمها الدولتان العظيمان في هذا الوقت الفرس والروم، وهذه الإشارة جاءت في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ الروم : ١ -٣.

ثم تتابعت الحروب الصليبية المختلفة على منطقة الشرق الأوسط والتي اتخذت من الصليب شعاراً لغزوها لهذه البلدان وإثارة الفتن فيها.

وهذه الهجمة الشرسة على بلاد الإسلام وإثارة الفتن والشبهات فيها لا تتوقف في عصر من العصور فهذا هو التاريخ الحديث يحدثنا عن استعمار الدول الإسلامية الكبرى للدول الأفريقية، ولمعظم البلدان الإسلامية والعربية فكانت هذه البلدان تقع تحت وطأة الاستعمار الفرنسي أو الإنجليزي.

فأطلقوا على انجلترا لقلب : (بريطانيا العظمى التي لا تغيب عنها الشمس).
وكان هدف هذه الحملات الاستعمارية الاستيلاء على خيرات هذه البلدان وما أودع الله فيها من ثروات طبيعية ثم محاولة إقصاء الناس عن دينهم وشريعتهم والتشكيك في مصادر النور والهدى القرآن والسنة وخاتم المرسلين ﷺ، بإثارة الشبهات وكثرة المطاعن في مصادر ديننا.

ومن أقبح ما أشاعه وروجه هؤلاء أن الدين هو مصدر التخلف، وأن الإسلام هو السبب في تخلف العالم الإسلامي، وهذه أكذوبة حقيرة وفرية ضالة يكذبها أن أول آية نزلت في الإسلامية هي : (اقرأ) ، فما ذنب الإسلام إذا كانت أمة اقرأ لا تقرأ وما ذنب الإسلام إذا كانت الأمة التي نزلت عليها سورة الحديد لا تجيد فنون صناعة الحديد السليمة والعسكرية أو الخفيفة والثقيلة وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى.

وهذا الدكتور / صلاح عبد الفتاح الخالدي يصور هذه الحقيقة بهذه العبارات:
(ولعل الظرف الخاص الذي يعيشه المسلمون في هذا العصر، هو الذي دفع المفكرين والباحثين إلى الإقبال على القرآن، والكتابة في موضوعاته إن من أبرز

سمات هذا العصر أنه شهد التآمر على الخلافة الإسلامية وهدمها، وهجمة أعداء الإسلام من الصليبيين واليهود وغيرهم على الإسلام والمسلمين وغربة الأجيال من المسلمين عن مبادئ الإسلام وحقائق القرآن، وانتشار أفكار مناقضة للقرآن بين المسلمين، ووجود حركات ودعوات وجماعات إسلامية تعمل على استئناف الحياة الإسلامية من جديد).

- وقد كثرت الدراسات القرآنية المعاصرة ، وهي تلك الكتب الخاصة بدراسة موضوعات وإبراز حقائق القرآن، ومبادئه وتوجيهاته وهي دراسة حول القرآن وتعتمد على نصوصه اعتماداً كاملاً، ولا تخرج إلى خدمة غيره من العلوم الإسلامية كالفقه والحديث والعقيدة والتاريخ واللغة، وغير ذلك.

فإذا التزم الكاتب بنصوص القرآن ، وإبراز حقائقه كانت دراسته قرآنية، وإذا خرج الكاتب إلى العقيدة أو الحديث أو الفقه أو التاريخ كانت دراسته إسلامية وليست قرآنية لأنه يتكلم عن الإسلام بمفهومه الأشمل، وليس عن القرآن بمفهومه الأخص.

ولهذا تقرر أن الدراسات الإسلامية العامة الشاملة ليست دراسات قرآنية خاصة، وليست قريبة من التفسير الموضوعي، مع أنها صورة من صور الفكر الإسلامي المعاصر:

- **ومن الدراسات القرآنية ما يلي :**

(الإنسان في القرآن) لعباس محمود العقاد.

(اليهود في القرآن) لمحمد عزه دروزة.

(ظاهرة النفاق في القرآن) عبد الرحمن حبنكة.

(متشابه القرآن دراسة موضوعية) د. عدنان زرزور.

(اليهود في الكتاب والسنة) الإمام الأكبر أ. محمد سيد طنطاوي.

فهذه الدراسات وغيرها كثير تعتبر دراسات قرآنية نافعة، تبحث عن بعض موضوعات القرآن، وتعرض بعض حقائق وتوجيهات القرآن، وتضيف إضافة علمية جديدة إلى المكتبة القرآنية.(١)

ذكرنا فيما سبق أن التفسير الموضوعي بتعريفه العلمي الذي قدمناه سابقاً من العلوم المعاصرة، فلم يعرفه العلماء السابقون بمعناه الاصطلاحي ، الذي عرفه به العلماء والدارسون في عصرنا الحاضر.

قال الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في كتابه (التفسير والمفسرون) عن التفسير الموضوعي عند السابقين: (وكذلك وُجد من العلماء من ضيّق دائرة البحث في التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة.

فابنُ القيم – مثلاً – أفرد كتاباً من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن ، سماه (التبيان في أقسام القرآن)، وأبو عبيدة أفرد كتاباً للكلام عن مجاز القرآن، والراغب الأصفهاني أفرد كتاباً في مفردات القرآن، وأبو جعفر النحاس أفرد كتاباً في الناسخ والمنسوخ من القرآن، وأبو الحسن الواحدي أفرد كتاباً في أسباب نزول القرآن، والجصّاص أفرد كتاباً في أحكام القرآن.

وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن ، يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث...)(٢).

- ويعلق الدكتور/ أحمد حسن فرحات على كلام العلامة الذهبي بقوله:

(... ولكن حتى هذه الكتب المؤلفة في موضوع واحد من موضوعات علوم القرآن، فإنها تنهج نفس المنهج التحليلي، الذي أشرنا إليه، وهو الكلام في جزئيات الآية، من لغة وصرف ونحو وبلاغة، وما إلى ذلك.. فإذا نظرنا إلى وحدة الموضوع، الذي يجمع

---

(١) أنظر التفسير الموضوعي لصلاح الخالدي /٣٧.

(٢) التفسير والمفسرون لمحمد حسن الذهبي ١٤٨/١ -١٤٩..

الآيات المتعددة من سور مختلفة، أمكننا أن نعتبر مثل هذا العمل نوعاً من التفسير الموضوعي، مع شيء من التجوز.

وإذا نظرنا للطريقة التي تُحلل فيها الآيات إلى جزئيات ، أمكننا أن نعتبر هذا من قبيل التفسير التحليلي...)[1].

## وخلاصة البحث في هذه المسألة:

(أن التفسير الموضوعي مصطلح معاصر، وأن البحث والكتابة فيه من باب تلبية حاجات مسلمي هذا العصر، وأن السابقين لم يعرفوه بالصورة التي نعرفها نحن الآن، وأنهم كانوا مشغولين بالتفسير التحليلي وفق ترتيب الآيات والسور في المصحف، وهذا لا يُعيبهم ، ولا يُنقص قدرهم، لأنهم حققوا حاجات مسلمي عصرهم، ولا نطالبهم أن يرتقوا لمستوى حاجاتنا المتجددة)[2] .

(١ ) التعريفات بالقرآن الكريم د. أحمد حسن فرحات : ١٤١.
(٢ ) أنظر التفسير الموضوعي د. صلاح الخالدي: ٣٩

# ألوان التفسير الموضوعي وأنواعه

**اللون الأول عن التفسير الموضوعي عند السابقين :**

أن يتتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها.

فالمتتبع لمثل هذا يخرج بلون من التفسير لأساليب القرآن الكريم في استخدام مادة الكلمة ودلالاتها .وقد سبقت الإشارة إلى أن العمدة في هذا اللون من التفسير هي الكتب المؤلفة في الموضوعات الآتية:

(١) غريب القرآن، (كالمفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني.

(٢) الأشباه والوجوه والنظائر، (كإصلاح الوجوه والنظائر في القرآن) للدمغاني.

(٣) (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ) للمسلمين الحلبى .وغير هذه الكتب في المكتبة العربية والإسلامية كثير.

وهذه المؤلفات القديمة من ألوان التفسير الموضوعي بقيت في دائرة بيان دلالة الكلمة في موضعها.

ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، فبقى تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية .فهي بدايات تصلح أن تكون (لبنات) أولية لهذا اللون من التفسير الموضوعي، يمكن للباحث المعاصر أن يستفيد منها، ثم يضيف عليها إضافات كثيرة.

ومصطلحات القرآن التي تصلح لهذا اللون من التفسير الموضوعي كثيرة، مثل: السلم، الجهاد، الأمة، العدل، الأمانة، المنافقون...

**اللون الأول من التفسير الموضوعي عند المعاصرين :**

يختص هذا اللون بالمصطلحات والمفردات القرآنية حيث يختار الباحث لفظاً من ألفاظ القرآن ورد كثيراً في السياق القرآني، فيتتبعه في السور والآيات، ويلحظ اشتقاقاته وتصاريفه المختلفة، وينظر في الآيات التي أوردته مجتمعة ويستخرج منها الدلالات واللطائف والحقائق .ويعتمد الباحث في إحصائه واستقرائه لاشتقاقات وتصريفات المصطلح القرآني على (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) لمحمد فؤاد عبد الباقي و(معجم ألفاظ القرآن) لمجمع اللغة العربية.

**ومن نماذج ذلك:**

كتاب (الأمة في دلالتها العربية والقرآنية) أ. دكتور/ أحمد حسن فرحات، فقد اختار الدكتور فرحات بحث مصطلح (الأمة) في القرآن فتتبع كلمة (الأمة) حيثما وردت في الآيات القرآنية ثم استخرج معاني كلمة الأمة من المعاجم اللغوية ثم تكلم في هذا الموضوع عن النقاط التالية:

- أصل المعنى اللغوي للأمة.
- الاشتقاق اللغوي .
- الأمة بمعنى الجماعة.
- الأمة بمعنى الدين.
- الأمة بمعنى الرجل المنفرد.
- الأمة بمعنى الحين أو الزمن.
- نظرة جديدة تربط هذه المعاني.

ثم تأمل الدكتور/ فرحات في استعمال القرآن لمصطلح الأمة، وتناول بالعرض والتحليل المسائل العلمية التالية:

- الأمة في القرآن بمعنى الجماعة، وقد عرض القرآن ستة أصناف من الجماعات، كل صنف يطلق على أفراده أمة، مستشهداً على هذا بآيات القرآن:

الجماعة من كل حي، الجماعة من الناس، الجماعة من الناس على دين واحد، الجماعة من الناس التي لها رسول واحد، الجماعة المسلمة المتبعة لمحمد ﷺ، الجماعة من العلماء.

- ثم تكلم عن مجيء (الأمة) في القرآن بمعنى الملة والدين، وبعنى الرجل المنفرد الذي لا نظير له، وبمعنى الحين أو الزمن، واستشهد على كل ذلك بآيات القرآن.

- ثم انتقل للحديث عن المعنى الإسلامي للأمة، وإقامة الرسول للأمة المكونة من المهاجرين والأنصار على المعنى القرآني والإسلامي لمصطلح الأمة.

**واستخلص من ذلك حقائق بارزة.**

- ثم عرض الأستاذ الدكتور العناصر الأربعة لتكوين الأمة عند الغربيين وهي: العرق، والأرض، والتاريخ، واللغة .ونقد هذه العناصر نقداً علمياً إسلامياً، مبيناً سر استبعاد الغربيين (للدين) في تكوين الأمة.

- ثم ختم الدكتور / فرحات بحثه مبيناً تحقق أهداف وأبعاد إقامة الأمة كما صورها القرآن في الأمة الإسلامية الوسط، التي أخرجها الله للناس على يد خاتم المرسلين الذي أقامها وأنشأها على مبادئ القرآن وتوجيهات الإسلام، واقتدى به في ذلك الخلفاء الراشدون، فكانت الأمة القرآنية التي لا يعرف العالم، ولا حضاراته المختلفة مثيلاً لها على وجه الأرض.[1]

**الفرق بين الكتب المؤلفة قديماً في هذا الموضوع، والأبحاث الجديدة فيه:**

- تعني المراجع القديمة ببيان الدلالة اللفظية للكلمة القرآنية في كل موضع وردت فيه في القرآن على حدة. ولم يحاولوا الربط بين دلالات الكلمة المختلفة في القرآن.

---

(١) التفسير الموضوعي د. صلاح الخالدي /٥٣.

وأما المعاصرون الذين كتبوا في هذا اللون من التفسير فقد تتبعوا معاني الكلمة القرآنية في القرآن، وحاولوا الربط بين دلالاتها في مختلف المواضع، فكان أشبه ما يكون باللون الثاني من التفسير الموضوعي[1].

فالمعاصرون يربطون بين أصل الكلمة اللغوي ووجوه استعمالاتها في القرآن كله، كما يربطون بين الكلمة وسياق الآيات التي وردت فيها ليبنوا عليها هداية قرآنية أو ليستنبط من دلالات اللفظة وسياق استعمالاتها توجيهاً قرآنياً معيناً.

وذلك مثل الإنفاق في سبيل الله.

**اللون الثاني :**

تحديد موضوع ما يلحظ الباحث تعرض القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق.

فيتتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بتفسيرها يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال الآيات الكريمة.

فينسق بين عناصره، ويقدم له بمقدمة حول أسلوب القرآن الكريم في عرض أفكار الموضوع ويحاول أن يقسمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويستدل بالآيات القرآنية على كل ما يذهب إليه ويتحدث عنه مع ربط ذلك كله بواقع الناس ومشاكلهم، ومحاولة حلها وإلقاء أضواء قرآنية عليها .ويتجنب خلال بحثه التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات فلا يذكر القراءات، ووجوه الإعراب والنكات البلاغية إلا بمقدار ما تُلقي أضواء على أفكار الموضوع الأساسية، ويعرض ما يتحدث عنه بأسلوب جذّاب لتوضيح مرامي الآيات ومقاصدها والحكمة الإلهية في عرض أفكار الوضوع بأساليب معينة واختيار ألفاظ محددة لها.

---

(١) انظر مباحث التفسير الموضوعي ٢٣/٢٤.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وإذا أطلق اسم ( التفسير الموضوعي) فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه.

وقد كثرت المؤلفات قديماً وحديثاً في هذا اللون من التفسير الموضوعي.

فما كُتب :
- إعجاز القرآن.
- الناسخ والمنسوخ.
- أحكام القرآن.
- أمثال القرآن.
- ومجاز القرآن.

..قديماً إلا أمثلة ناطقة على أهمية هذا اللون من التفسير عند السلف الصالح من علماء هذه الأمة .وكذلك الموضوعات المختلفة المعاصرة: المتعلقة بمجالات المعرفة المختلفة حيث ربطها الباحثون بالقرآن الكريم ونظروا بمنظاره إلى هذه المجالات وكيفية البحث عنها، سواء كانت هذه المجالات مما يتعلق بالكون المحيط بالإنسان، من أرض وسماوات وكواكب ونجوم وبحار ومحيطات وجبال وأنهار ونبات وحيوان، أو كانت مما يتعلق بالإنسان خلقه وتكوينه وعواطفه وغرائزه ومشاعره ونفسه وعقله، وأخلاقه وسموه وتسفّله، أو بالحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان في مجتمعه بدءاً بالعلاقات الأسرية والاجتماعية والسياسية، والعلاقات الدولية والأمور الاقتصادية والسياسية، وأنظمة السلم والحرب والدعوة إلى الله وأخذ العبر والعظات من سير الأقوام والأمم الماضية .

ومما يتعلق كذلك بأمور الغيب من البعث بعد الموت والحشر والحساب والجنة والنار، وصنوف النعيم في دار السعادة للمتقين، وصنوف الشقاء للتعساء في دار الجحيم.

ولا تكاد تنتهي مثل هذه الموضوعات، بل كلما جدّت علوم وصنوف من المعرفة لدى الإنسان يجد الباحث في القرآن الكريم ما يشبع فكره اقتناعاً، وقلبه طمأنينة من عرض القرآن الكريم لأساسيات هذا اللون من المعرفة بوضع الأسس العامة والتوجيهات الأساسية في هذا الشأن[١].

ومن أوضح الأبحاث التي تمثل هذا اللون من التفسير الموضوعي كتاب (الصبر في القرآن الكريم) للدكتور/ يوسف القرضاوي، وقد اعتبره الدكتور القرضاوي، من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، كما جاء في صفحة العنوان.

-جعل الدكتور القرضاوي كتابه في خمس فصول:

**الفصل الأول:** حقيقة الصبر في القرآن الكريم:

تحدث فيه عن ورود الصبر في آيات القرآن، وعن أنواع الصبر، وضرورته للمؤمنين، وحكمة أمر الله رسوله بالصبر، والبواعث على الصبر، وما هو الصبر المحمود الجميل.

**الفصل الثاني:** مجالات الصبر في القرآن، عرض فيه ستة مجالات للصبر عرضها القرآن:

الصبر على بلاء الدنيا، الصبر على مشتهيات النفس، الصبر على طاعة الله، الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، الصبر حين البأس، الصبر في مجال العلاقات الإنسانية.

**الفصل الثالث:** منزلة الصبر والصابرين في القرآن الكريم، تحدث فيه عن: اقتران الصبر بالقيم الروحية العليا في الإسلام، التنويه بمكانة الصابرين عند المؤمنين وترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر.

**الفصل الرابع:** شخصيات صابرة ذكرها القرآن الكريم :

تحدث فيه عن أربع شخصيات صابرة ، وهم:

أيوب ، ويعقوب، يوسف ، وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

**الفصل الخامس:** ما يعين على الصبر، قدم فيه سبع وسائل تعين الصابر على الصبر، وهي:

معرفة طبيعة الحياة الدنيا ، معرفة الإنسان طبيعة نفسه اليقين بحسن الجزاء عند الله ، اليقين بالفرج. الاستعانة بالله ، الاقتداء بأهل الصبر والعزائم ، الإيمان بقدر الله وسننه.

- لقد قام الدكتور يوسف القرضاوي في تفسيره الموضوعي (الصبر في القرآن) بجولة في آيات القرآن، بقى فيها مع آيات الصبر، ناظراً فاحصاً محللاً متدبراً، ولم يخرج عن موضوع الصبر إلى غيره.

ومعالجة موضوع الصبر على أساس القرآن ضرورية لمسلمي هذا العصر، لأنه بالصبر الجميل المحمود، يمكن حل كثير من مشكلاتهم وقضاياهم .ولهذا قدم القرضاوي في كتابه خدمة جليلة لهم، جزاه الله خيراً[1].

**الفرق بين اللون الأول واللون الثاني في التفسير الموضوعي**

الباحث في التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني (اللون الأول) يبقى مع المفردة القرآنية التي اختارها، ويتابع معناها في معاجم اللغة، واشتقاقاتها وتصريفاتها في القرآن ويلاحظ ما طرأ على وضع هذه اللفظة القرآنية من تغييرات في آيات القرآن، ويحاول أن يعلل ذلك، ثم يستخرج لطائف ودلالات من سيره مع هذا المصطلح القرآني، ويلتفت إلى الدلالات العامة ذات الأبعاد الواقعية التي تهمُّ مسلمي هذا العصر.

أما الباحث في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني،(اللون الثاني) ، فإن بحثه أعمّ وأشمل من الأول وميدانه في البحث أوسع، ووقفاته الفكرية معه أكثر، ومعالجته الواقعية لحاجات ومشكلات أمته من خلاله أوضح.

إنه ينظر في الآيات التي عرضت الموضوع الذي هو بصدد الحديث عنه، والآيات الأخرى التي عرضت ألفاظاً أخرى قريبة منه، والآيات التي عرضت موضوعات تتصل به، أو تساعد على توضيحه، ويتوسع في هذه الجوانب، على حساب التحقيقات اللغوية والبيانية، واللطائف البلاغية والأسلوبية[2].

---

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ٥٥/٥٦.
(٢) التفسير الموضوعي د. صلاح الخالدي ٥٤/٥٥.

**اللون الثالث :**

يختار الباحث في هذا اللون من التفسير الموضوعي سورة من القرآن الكريم، وينظر فيها نظرة موضوعية متدبرة، ويقف مع آياتها وقفة مطولة، ويتعرف على موضوع السورة ومقاصدها وأهدافها، وعلى الخطوط الرئيسية التي تجمع مختلف موضوعاتها الفرعية، ويخرج من ذلك بتحليل موضوعي موسع، ودراسة موضوعية متكاملة، تبدو معها تلك السورة وحدة موضوعية متناسقة .

ومن المعلوم أن كل سورة من القرآن تعتبر وحدة موضوعية موحدة، ولها شخصية فريدة خاصة، وتعالج موضوعاً رئيسياً أساسياً، تتدرج معه عدة موضوعات جزئية فرعية.

وقد كان لبعض المفسرين السابقين إشارات لهذا اللون من التفسير الموضوعي، وإدراك للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ولهم بعض التحليلات والتعبيرات حول هذا الموضوع لكن لم يبحثوا الموضوع بمنهجية علمية، ولا على أسس موحدة كما هو عليه الحال الآن في دراسة هذا اللون من ألوان التفسير الموضوعي ولا يضيرهم هذا، لأننا نفهم نتاجهم وجهودهم وفق مقاييس عصورهم، ولا يجوز أن نحاكمهم إلى مقاييس عصرنا، وأن نطلب منهم ما نطلبه من علماء عصرنا.

من الذين استشرفوا الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية الإمام الزمخشري في تفسيره، والإمام فخر الدين الرازي والإمام النيسابوري في غرائب القرآن.

-فقد جاء في ثنايا هذه التفاسير الإشارة إلى بعض أهداف السورة.، وخاصة القصيرة منها .

ولكن أكثر المفسرين السابقين إدراكاً لهذا وتعبيراً عنه المفسر الإمام: برهان الدين البقاعي، صاحب التفسير الفريد(نظم الدرر في تناسب الآي والسور) والذي اختصره في كتابه: (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور).

فالمتأمل في تفسير البقاعي يجده مؤمناً بأن القرآن كله وحدة واحدة، وأن كل سورة جزء من هذه الوحدة القرآنية العامة ,وأن آيات كل سورة تتناسق وتتناسب لتكون فيما بينها وحدة واحدة للسورة وقد أدار تفسير (نظم الدرر) على هذا الأساس، وقدم تحليلات رائعة.

إن البقاعي رائد في هذا اللون من التفسير الموضوعي عند السابقين، وإن كانت تحليلاته - على روعتها ونفاستها مناسبة لعصره في هذا اللون من التفسير الموضوعي.

وأما كتابات المفسرين المعاصرين في هذا اللون فهي أوفى وأعمق، وبيان أهداف السورة ومقاصدها وما تشمل عليه من الوحدة الموضوعية أتم وأكمل.

- ومن المفسرين المعاصرين الذين اعتنوا ببيان الوحدة الموضوعية للسورة العلامة: محمد رشيد رضا في تفسيره المنار، وشهيد الإسلام: سيد قطب في كتابه الفريد: (في ظلال القرآن) ، والإمام الكبير محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير.

والعالم المجاهد سعيد حوى في تفسيره: الأساس في التفسير.

- لكن القول بالوحدة الموضوعية لسور القرآن، كان أبرز ما يكون عند مفسرين رائدين، الأول سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن)، والثاني المعلم الهندي عبد الحميد الفراهي في تفسيره :« نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان » الذي توفي قبل إتمامه.. قبل إتمامه حيث لم يفسر منه إلا بعض السور.

- وقد عوض المعلم الفراهي نظريته في نظام القرآن في ثلاث كتب:

الأول: في مقدمة تفسيره (نظام القرآن) وهي مقدمة هامة جداً.

الثاني: في كتابه الفريد (دلائل النظام)

الثالث: في كتابه الفذ (التكميل في أصول التأويل).

وللمعلم عبد الحميد الفراهي تحليلات لطيفة في السور التي فسرها، وله آراء سديدة في الوحدة الموضوعية للقرآن أما تحليلات سيد قطب للسور القرآنية، وبيانه لموضوعاتها

الرئيسيه . فإنها في غاية الروعة والنفاسة عندما تقرأ تعريف سيد قطب الموضوعي للسور القرآنية تجد عنده آراء ونظريات، وتحليلات وتطبيقات لا تجدها عند غيره من المفسرين السابقين والمعاصرين وأبرز ما يكون هذا في الطبعة المنقحة من(الظلال) التي وصل فيها إلى نهاية سورة الحجر.

يتكلم سيد قطب في الطبعة المنقحة من الظلال على موضوع السورة الأساسي، وعلى خطوطها الأساسية وعلى موضوعاتها الفرعية، وعلى جوّ نزولها، وحالة المجتمع الإسلامي وقت نزولها، وعلى أهداف السورة ومقاصدها، وعلى شخصيتها المستقلة، وعلى طريقتها في تقرير حقائقها، وعرض موضوعاتها .فما أن ينتهي القارئ من تقديم سيد قطب للسورة حتى يكون قد تعرف على السورة، وأدرك وحدتها الموضوعية[1].

(١) التفسير الموضوعي د. صلاح الخالدي من ٥٨:٥٦. وأنظر مباحث التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم.

# أهمية التفسير الموضوعي

(١) إن تجدد حاجات المجتمعات الإسلامية ، وانتشار أفكار حديثة على الساحة الإنسانية ، وظهور نظريات علمية حديثة ، لا يمكن رؤية حلول صحيحة لها إلا عن طريق التفسير الموضوعي وذلك أن الباحث المسلم عندما يجابه مشكلة في الحياة ، أو تقدم له نظرية مستحدثة في علم النفس أو علم الاجتماع ، أو العلوم الطبيعية أو نظرية في الاقتصاد ...فإنه لا يستطيع أن يجد لكل هذه النظريات المستجدة نصوصاً من آيات الذكر الحكيم تناقش مثل هذه القضية المطروحة وتبين حكم الله تعالى فيها ، بل يلجأ الباحث إلى القرآن ويستخرج الهدايات القرآنية والتوجيهات الإلهية في معالجة الأفكار الذي هو بصدد بحثها مبيناً موقف القرآن منها ، ويستعين في معالجة هذه الأفكار المستحدثة بالسنة النبوية الصحيحة[1] التي هي بيان عملي وشرح تفصيلي لما جاء في القرآن ، وبذلك تتكون لديه ملكة لإدراك مقاصد القرآن الكريم في الشريعة والحياة وبمنظار القرآن الكريم ينظر إلى حل هذه المشكلة أو يقوّم هذه النظرية ، معالجاً هذه الأفكار الجديدة والنظريات المستحدثة إن المتأمل في الغالب الأعم من نصوص القرآن قطعية الدلالة يجدها محددة والقضايا التي تتناولها بالتوضيح والبيان والتفصيل محددة أيضاً.

أما المشكلات الإنسانية وآفاق المعرفة ففير محددة بل متجددة بتجدد الزمان والمكان والأشخاص ، ما دامت الحياة مستمرة على هذه الكرة الأرضية . ولا يمكن أن نعالج هذه المشكلات والأفكار والآراء وما يستحدث من معارف وعلوم بظواهر نصوص الكتاب والسنة المحددة أعني قطعية الدلالة منها ، فقد حث القرآن على التأمل والنظر في نصوص الشريعة واستنباط الأحكام وحلول ما يجدّ من مشكلات أو قضايا يهتم بها الفكر والمجتمعات الإنسانية من نصوص شريعتنا الغراء . فالشريعة الاسلامية وهي الرسالة الخاتمة أوجد الله فيها ما يجعلها صالحة للعمل بها في كل زمان ومكان ، عن طريق الاجتهاد في فهم مضامين الكتاب والسنة ، واستخراج الحلول المناسبة للمشكلات

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي /٣٠

والقضايا والأفكار المعاصرة، من المعلوم لدى الفقهاء وعلماء الشريعة إن الأمر بالاجتهاد في فهم نصوص شريعتنا لا ينقطع في أي زمان ومكان وقد ألف الإمام السيوطي رسالة شريفة في هذا المعنى سماها(الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض).

وفي هذا المقام يقول تعالى:

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٨ هذه الآية عتاب من الله لرسوله ﷺ .٦٩ في ترك الأولى، وذلك أن النبي ﷺ استشار أصحابه في أسرى بدر، فاجتهد عمر ورأى قتلهم لأنهم حاربوا الله ورسوله، وألجاؤا الرسول وأصحابه إلى الهجرة، وأخذوا ديارهم وأموالهم التي تركوها في مكة، واجتهد أبو بكر فقال يا رسول الله: هم قومك وعشيرتك، وأرى أن نأخذ منهم فدية نستعين بها، وعسى الله أن يخرج من ظهورهم من يعبده ويوحده.

ومال النبي باجتهاده وشفقته على أمته إلى رأي أبي بكر فعاتبه الله على ذلك.

-وقد جاء في جملة الأقوال الواردة في تفسير الآية أن الكتاب الذي سبق من الله (لو لا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو ألا يعذب المخطئ في اجتهاده)[1].

وفي هذه المسألة العلمية يذكر أبو حيان هذه العبارات:

(لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح وهو أن لا يعاقب أحد بخطأ وكان هذا خطأ في الاجتهاد .لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله وخفي عنهم أن قتلهم أعز الإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم[2].

---

(١) التفسير المنير ٦٦/١٠.

(٢) البحر المحيط ٥١٩/٤ . الكشاف / وانظر السيرة النبوية الصحيحة ٢٦٨/٢

وفي هذا المقام يقول تعالى :

﴿ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

فهذا النص الإلهي الحكيم يحث الأمة إلى التوجيهات الآتية :

(فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة وقعدت أخرى ليتفقهوا) وإنما ينبغي أن ينفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الطائفة في الدين وتنذر قومها إذا رجعوا إليهم ويعلمونهم بما تجدد من أحكام الشريعة وتكاليفها[١].

(فهذه الآية من أحكام الجهاد ، فهي لا توجب على جميع المؤمنين الجهاد إذا لم يخرج النبي ﷺ إليه ، وإنما أرسل السرية ,وحينئذ يجب على المؤمنين طلب العلم والتفقه في الدين ، لأن الجهاد يعتمد على العلم ، ولأن نشر الإسلام في الأصل يتوقف على البيان بالحجة والبرهان ، فهذا بيان لمراده تعالى من تغير الأحياء كلهم فتكون فئة منهم للتفقه وفئة أخرى للجهاد ، فإنه فرض كفاية على الناس ، كما أن طلب العلم فرض كفاية أيضاً [٢].

وفي هذا المقام ورد في الصحيح عن عمرو وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب ,فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ ، فله أجر واحد) [٣].

ويمكن القول بأنه من خلال الاجتهاد في فهم نصوص القرآن فهماً مناسباً لروح العصر ، والتدبر الأمثل لآياته ، ومن خلال الوقوف على علل النصوص وهداياتها العامة ودلالاتها ، ومعرفة مقاصد الشريعة يمكننا أن نصل إلى اكتشاف الكثير من أنوار

---

(١ ) أنظر البحر المحيط لأبي حيان ١١٤/١١٢/٥ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٩٢/٨.

(٢ ) التفسير المنير ٧٧/١١

(٣ ) متفق عليه أخرجه البخاري وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد رقم ١٧١ صحيح مسلم بشرح النووي ١١ و١٢ /٢٥٤ ، وانظر البحر المحيط للزركشي مباحث الاجتهاد ٦/١٩٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ ومشكاة المصابيح باب العمل في القضاء رقم ٢٢٧/٧/٣٧٢٢.

الهدايات القرآنية التي نقوّم بها كل مستحدث جديد في المعارف الإنسانية المستحدثة بل في مختلف شئون الحياة.

لذا لا يمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم وفي هذا المقام يقول الدكتور مصطفى مسلم:

(إن جمع أطراف موضوع ما من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والإحاطة بدلالاتها يمكّن الباحث من القيام بدور اجتهادي للتوصّل إلى أفكار وقواعد عامة جديدة. وعلى ضوء هذه القواعد والهدايات المستمدة من مقاصد النصوص الشريفة يستطيع الباحث أن يدرك معالجة الإسلام لهذه المعضلات والمشكلات[1].

فمن خلال هذا العلم (التفسير الموضوعي) يمكن للباحث أن يحدد موضوعاً معيناً يقوم بدراسته فيجمع الآيات الواردة في الموضوع، ويقوم بدراسة أسباب نزولها إن كان لها سبب نزول، ويحاول التعرف على الظروف والملابسات والأحوال التي صاحبت هذه الآيات، ويقوم بتوجيه الآيات التي ظاهرها التعارض، ويرتب الموضوع الذي يدرس ترتيباً علمياً يجمع أطرافه واضعاً نصب عينيه مقاصد الشريعة، مع الاستعانة في جميع مراحل دراسة هذا الموضوع بما ورد في السنة النبوية الصحيحة. يخدم بحثه.

فأمثال هذه الأبحاث والدراسات لا يمكن أن تحقق إلا في ظل هذا العلم (التفسير الموضوعي).

وفي هذا المقام يجدر بنا أن نذكر هذه العبارات للدكتور مصطفى مسلم:
(عن طريق التفسير الموضوعي يستطيع الباحث أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه. فكلما جدّت على الساحة معطيات جديدة لتطور الفكر البشري بما يعايشها المفسّر ويحيط بدقائقها وحقائقها ثم يلجأ إلى القرآن

(١) مباحث في التفسير الموضوعي /٣١

الكريم وإلى السنة النبوية الشريفة ليستنطق النصوص الشريفة ويميط اللثام عن وجوه جديدة من الهدايات القرآنية.

ويجد أهل الاختصاص في كل فن أن المعجزة الخالدة الباقية تقيم الحجة على الأجيال وأن في القرآن من الكفاية والغناء عن كل شيء:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ العنكبوت : ٥٠ -٥١

فالتفسير الموضوعي يمكّن العلماء والباحثين الراسخين في العلم من إبراز هدايات القرآن. وألوان إعجازه المختلفة، ووضع القواعد والضوابط التي تصون النص القرآني من الشطط في فهمه ومن طرفي الإفراط والتفريط، وتحافظ على كون القرآن كتاب هداية وإعجاز، مع الاستفادة بأنوار هداياته، فيستفاد بذلك في جمع العلوم والمعارف الحديثة من أمثال العلوم المختلفة بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

(فقد برز هذا العلم وكثرت الكتابات فيه إلا أنه يحتاج إلى ضبطه بقواعد علمية مستمدة من هدايات القرآن الكريم ليُجنب الإفراط والتفريط في إدخال الآيات مجال البحث، والمتعلقة بالعلوم التجريبية من علوم الفلك والطبيعة والإنسان، وكذلك علم (أصول التربية القرآنية) فبعد بروز المدارس الاجتماعية ومدارس علم النفس في الغرب، وغزوها للأمم والشعوب - وعلى رأسها دول العالم الإسلامي - ومحاولة إقامة صرح التعليم والتربية حسب مناهجها - ومحاولة تطبيق هذه المناهج المستحدثة في بلاد الإسلام - لذلك رأى المفكرون المسلمون أن الضرورة بمكان استخلاص مبادئ هذا العلم من هدايات القرن الكريم، ولازالت الكتابات في هذا الجانب قليلة جداً، إذ تحتاج منّا هذه العلوم إلى علماء راسخين في علوم الشريعة، إلى جانب استيعابهم لثقافة العصر ومناهج المدارس الحديثة في الغرب والشرق، إلى جانب ملكة قوية في الإبداع والاستنباط، ليقوم هذا العلم على أسس راسخة.

وينطبق ما ذكرناه أيضاً على (أصول علم الاقتصاد الإسلامي) و(أصول الإعلام الإسلامي)[١].

وكذلك تحتاج إلى المنهج المتبع في التفسير الموضوعي في علم التاريخ والحضارة الإنسانية.

فعلم التاريخ البشري أخذ منهجاً في سرد الوقائع والأحداث من غير تعرض لسنن الله في المجتمعات الإنسانية من حيث الرقي والتقدم أو الانحطاط والتخلف علماً أن هدايات القرآن قد أبرزت هذه السنن بشكل دقيق عند عرض قصص الأمم السابقة مع أنبيائها.

وكذلك نحتاج إلى منهج التفسير الموضوعي في إبراز مزايا التشريع الإسلامي وحكمه. فعلى الرغم مما كتبه بعض العلماء في ثنايا كتبهم حول الإعجاز التشريعي للقرآن إلا أن الحاجة ماسة للكتابة حول فلسفة التشريع الإسلامي في جميع مجالات الحياة.

إن كثيراً من العلوم تؤدي دوراً هاماً في حياتنا المعاصرة، ولازالت معالم هذه العلوم غير واضحة الصلة بهدايات القرآن، ولا يمكن أن نجد نصوصاً محددة من القرآن الكريم أو السنة النبوية تناولتها وإنما تستشف أصولها من خلال روح النصوص الكريمة وهدايات القرآن الكريم والسوابق القضائية والفقهية لسلف هذه الأمة.

ولا وسيلة لوضع أسس هذه العلوم وبيان ضوابطها إلا من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي[٢].

---

(١) مباحث في التفسر / ٣٢ بتصرف.
(٢) مناهج في التفسر.

# التفسير الموضوعي وأنواع التفاسير الأخرى

## أولاً: التفسير الإجمالي:

وهو تفسير يقوم على الإجمال والإيجاز والاختصار، حيث يقوم المفسر بتفسير القرآن كله، لكنه يقدم المعنى الإجمالي للآيات، بدون توسع أو تفصيل أو تطويل في التحليل، وبدون زيادة في المباحث التفصيلية في العقيدة أو اللغة أو الفقه ففي هذا النوع من التفسير يقوم المفسر بتفسير القرآن المجيد على حسب ترتيب تلاوته، والتعرض لآياته آية آية في شرح مبسط يمكن أن يفهمه المتخصص وغيره، وتكون الغاية إيصال المعنى إلى الإفهام من أقصر طريق وإبراز ما تهدف إليه الآيات من مقاصد وحكم سامية وتكون صياغته في ألفاظ في متناول عامة الناس ولا تعلو على إفهامهم، ولا مانع لتقريب المعنى إلى إفهام المخاطبين بالاستعانة بحديث نبوي شريف أو أثر عن السلف الصالح، أو حادثة تاريخية، أو قصة قرآنية، أو ذكر سبب نزول[1].

## نماذج من كتب التفسير الإجمالي:

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي النيسابوري.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

(٣) تفسير الجلالين للسيوطي والمحلي.

(٤) صفوة البيان لمعاني القرآن لحسين محلوف.

(٥) المصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدي.

## ثانياً: التفسير التحليلي: الشرح والتوضيح:

وفيه يقف المفسر أمام كل آية، ويقوم بتحليلها تحليلاً موسعاً مفصلاً، ويتحدث أثناء التحليل عن مختلف الموضوعات والمباحث والمسائل، في اللغة والنحو والبلاغة والقراءات وأوجه المناسبات وأسباب النزول والعقيدة والروايات والأخبار وفي الأحكام والتشريعات، وفي الخلافيات والمناقشات والأدلة والبراهين.

---

(١) أنظر التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ٢٧ ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم/ ٢٠.

ويقدم المفسر في ذلك ثقافة موسوعية منوعة شاملة[١].

**الشرح والتوضيح:**

يقوم المفسر في التفسير التحليلي بتفسير آيات القرآن على حسب ترتيبها في المصحف الشريف تفسيراً تحليلياً دقيقاً، يراعى فيه بيان معاني الألفاظ القرآنية وأوجه استعمالاتها مبيناً المعنى المراد منها المناسب لكل مقام ويبين ما في الآية من فصاحة الألفاظ ودلالات التراكيب، وأوجه إعجاز النص القرآني البلاغية، ويقوم بإعراب النص القرآني إن ترتب على الإعراب تغيير في المعنى، وقلنا: إن ترتب على الإعراب تغيير في المعنى وذلك حتى لا يتحول التفسير إلى كتاب في الإعراب، فمحل ذلك الكتب التي صنفها أصحابها في إعراب القرآن.

ويقوم المفسر في التفسير التحليلي بذكر المناسبات فيبين مناسبة السورة للسورة التي قبلها وللسورة التي بعدها، ثم يذكر مناسبة كل آية للآية التي قبلها وللآية التي بعدها إن وجد ذلك في كتب التفسير، أو فتح الله له ببيان بعض ذلك، ومن المعلوم أن علم المناسبات من ألوان إعجاز القرآن.

ويذكر المفسر سبب نزول الآية إن وجد وصحت الرواية به، وأوجه القراءات المتواترة مع التوجيه مبيناً ما يستفاد منها من المعاني والأحكام ثم يقوم المفسر ببيان معنى النص القرآني موضحاً مقاصد الشريعة التي يشير إليها النص القرآني الذي يفسره، موضحاً ما يوجه إليه النص القرآني من فوائد وعبر وأحكام مستعيناً في بيان ذلك كله بما ورد من نص قرآني أو سنة صحيحة أو أقوال الصحابة والسلف الصالح، مدعماً تفسيره فيما يعرض له من مسائل الخلاف وغيرها بالحجج الواضحة والأدلة القاطعة والبراهين.

- ويدخل في التفسير التحليلي ما هو معروف عند العلماء بالتفسير المأثور والتفسير بالرأي المحمود[٢].

---

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق /٢٧.

(٢) انظر دراسات في التفسير الموضوعي / ٢١.

**نماذج من كتب التفسير التحليلي :**

-التفاسير المتوسطة الحجم:

(١) الكشاف للزفخشري ، ويلاحظ ما فيه من اعتزاليات في باب العقيدة.

(٢) تفسير النسفي وهو اختصار لتفسير للزفخشري مع الرد على الاعتزاليات.

(٣) تفسير البيضاوي.

(٤) التسهيل لابن جزي الغرناطي.

**تفاسير فوق المتوسطة :**

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير وهو من كتب التفسير المأثور.

(٢) الوسيط للإمام الواحدي.

(٣) تفسير ابن عطية.

(٤) تفسير أبي السعود.

(٥) تفسير القاسمي.

**تفاسير موسوعية كبيرة الحجم:**

(١) تفسير الطبري وهو تفسير موسع في التفسير المأثور.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم وهو أيضاً تفسير موسع في التفسير بالمأثور.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان وهو تفسير موسع في اللغة والقراءات والمناسبات وقد ورد فيه على الزمخشري في كشافه.

(٤) التفسير الكبير للإمام الرازي.

(٥) تفسير البقاعي وهو إمام علم المناسبات القرآنية.

(٦) روح المعاني للإمام الألوسي وهو تفسير موسوعي لا نظير له .

(٧) التحرير والتنوير للإمام الطاهري بن عاشور.

**ثالثاً : التفسير المقارن:**

- يقوم الباحث فيه بالمقارنة بين نصوص عدة مفسرين في تفاسيرهم مع اختلاف مناهجهم ومشاربهم/ فيجمع نصوصهم في تفسير سورة قصيرة أو مجموعة من

الآيات ذات الموضوع الواحد، أو موضوع من موضوعات الإيمان أو الفقه أو اللغة فيقوم بالمقارنة والموازنة بين نصوصهم ليتعرف على منهج كل مفسر وطريقته في موضوعه ومدى إلتزامه بمنهجه، فيقارن بينه وبين المفسرين الآخرين في ذلك مبيناً أن كل مفسر قد تأثر بالفن الذي غلب عليه وتخصص فيه، فمن مفسر قد أكثر من التحليل اللغوي للألفاظ القرآنية وآخر في النحو والإعراب والبلاغة، وغيره في الفقه والأصول والأحكام وعللها ومقاصد الشريعة، ومن مفسر قد تأثر بالتاريخ فسرد الحوادث والقصص، وآخر قد تأثر بالعلوم الكونية فأبرز ذلك في تفسيره وبعد المقارنة والموازنة بين نصوص هؤلاء المفسرين يعرض أقوالهم على الميزان الصحيح في تحديد أحسن المعاني الواردة في تفسير النص القرآني.

وبعد القيام بهذه المقارنة والموازنة بين النصوص، يحكم لهذا المفسر أو عليه.

وهذه المقارنة لا تشمل تفسير القرآن كله، إنما تكون خاصة بسورة قصيرة أو موضوع معين وذلك مثل المقارنة بين عدة تفاسير في موضوع زيادة الإيمان ونقصانه، أو آيات رؤية الله في الآخرة، أو عن السحر، أو عن أحكام الصيام إلى غير ذلك[1].

(١) أنظر التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق / ٢٨.

# المبحث الثاني

## العلم في القرآن الكريم

# العلم في القرآن الكريم

**تعريف العلم:**

قال ابن فارس: العين واللام والميم، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره وهو نقيض الجهل[١].

**وقال أهل اللغة:**

(العلم) إدراك الشيء بحقيقته، واليقين ونور يقذفه الله في قلب من يحب.

ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها وجهة واحدة، كعلم النحو، وعلم الأرض وعلم الكونيات[٢].

**والعلم:** الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع أو بعبارة أخرى: معرفة المعلوم الذي من شأنه أن يعلم على ما هو به في الواقع[٣]، كإدراك الإنسان بأنه حيوان ناطق.

والعلم حصول صورة الشيء في العقل، أو وصول النفس إلى معنى الشيء .أو زوال الخفاء من المعلوم.

تعريف المعرفة: إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بنسيان حاصل بعد العلم، ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف[٤].

**تعريف الجهل:**

(١) اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه.

(٢) التقدم في الأمور المبهمة بغير علم.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

(٢) المعجم الوسيط ٢/٦٢٠.

(٣) إذ هو صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض.

(٤) التوقيف على مهمات التعريف / ٦٦٦. انظر التعريفات للجرجاني مادة (علم، عرف).

**أقسام الجهل:**

وينقسم الجهل إلى قسمين: بسيط، ومركب.

(١) **الجهل البسيط:** عدم العلم عما من شأنه أن يعلم.

ويعالج بملازمة العلماء.

(٢) **الجهل المركب:** اعتقاد جازم غير مطابق للواقع[١] وهو أصعب أنواع الجهل، لأنه يحتاج إلى أمرين:

- الأول: إثبات أن ما يعتقده ليس صحيحاً.
- الثاني: أن يبين له الأمر الصحيح في المسألة.

**أقسام العلم:**

ينقسم العلم إلى قسمين:

قديم وحادث[٢].

(١) العلم القديم: هو القائم بذات الله تعالى، ولا يشبه بالعلوم المحدثة للعباد.

(٢) العلم المحدث: وهو ضروري ومكتسب:

(٣) الضروري ويسميه العلماء بدهي وهو: ما لا يقع عن نظر واستدلال، كالعلم الواقع بإحدى الحواس الخمس الظاهر، وهي السمع والبصر واللمس والشم والذوق فإنه يحصل بمجرد الإحساس بها من غير نظر واستدلال.

(٤) مكتسب ويسميه العلماء نظري وهو الموقوف على النظر والاستدلال كالعلم بأن العالم حادث لأنه متغير، وكل متغير حادث[٣].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف/ ٢٦١.

(٢) أنظر التعريفات للجرجاني / ١٥٥.

(٣) أنظر التعريفات للجرجاني / ١٥٥.

**أضرب العلم :**

العلم نوعان: نظري وعملي:

(١) النظري ما إذا عُلم فقد كمل، نحو العلم بموجودات العلم.

(٢) والعملي ما لا يتم إلا بأن يُعمل كالعلم بالعبادات[١].

**مصادر العلم:**

(١) العلم السمعي: وهو ما طريق معرفته وإدراكه السمع، فمصدره الوحي.

العلم العقلي: وهو ما طريق معرفته الإدراك العقلي، ويعلم بالتفكر والنظر والاستدلال[٢].

ذكر الفيروز آبادي فيما يتعلق بهذه المسألة ما مفاده:

أن طرق العلم لا تنحصر ، ثم ذكر منها:

(١) ما وقع من عيان وهو البصر.

(٢) ما استند إلى السمع ، وهو الاستفاضة واستفاض الخبر انتشر، والقوم في الحديث توسعوا.

(٣) ما اسند إلى العلم وهو علم التجربة.

(٤) ما يدرك بسائر الحواس فهو يوجب العلم.

(٥) ما يدرك بالباطن وهو الوجدانيات.

(٦) ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن تجربة.

(٧) ما يدرك بالمُخبر الصادق وإن كان واحدا[٣].

**حقيقة العلم :**

هي إدراك المعلوم على وجهه الصحيح سواء كان العلم سمعياً نظرياً ، أو كان عقلياً ، أو كان تجريبياً .

---

(١ ) عمدة الحفاظ / ١٢٥.

(٢ ) أنظر عمدة الحفاظ/ ١٢٥.

(٣ ) أنظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (بصير في العلم)

**غاية العلم :**

إرضاء الله تعالى بالعمل بشريعته وهداياته وإسعاد الناس بإقامة العدل والأمن والرخاء بينهم، وفق منهج الله في الكون والحياة.

**فضل العلم ومكانته**

قال الفيروز أبادي في بيان هذه المسألة، في معرض ثنائه على العلم:

(.... فهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثتهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور ورياض العقول ولذّة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتميّزين، وهو الميزان الذي يُوزن به الأقوال والأفعال والأحوال، وهو الحاكم المفرّق بين الشك واليقين، والغيّ والرشاد والهدى والضلال، به يُعرف الله ويعبد ويذكر ويوحّد، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة.

والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف[1] الذي لا ضيعة على من أوى إلى حرزه.

مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب، لأن المرء يحتاج إليها مرة أو مرتين في اليوم، وحاجته إلى العلم كعدد أنفاسه، وطلبه أفضل من صلاة النافلة، نص عليه الشافعي وأبو حنيفة ...وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ومُدنيهم من كرامته ويكفي في شرفه أن فَضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وكفضل سيد المرسلين على أدنى الصحابة منزلة، وأن الملائكة تضع لهم أجنحتها وتُظلّهم بها (كما في الحديث): (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع).

---

(١) أكْنَفَ الشيء: صانه وحفظه، و – فلاناً: أعانه على حاجته.

(وأن الملائكة يصلون على معلمي الناس الخير وأن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر، وحتى النملة في جُحرها .وأمر الله رسوله الخاتم وهو أعلم العباد وأكملهم لمنزلته من الوحي أن يسأل الزيادة من العلم فقال: وقل رب زدني علماً[1].

(١) أنظر بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي.

## العلم في القرآن الكريم بإيجاز

الذي يتدبر القرآن يقف على مكانة العلم ومنزلة العلماء العاملين واضحة في القرآن، ولعل ذلك يتضح بذكر النماذج الآتية:

**أولاً:** أول آيات نزلت على النبي الخاتم ﷺ تتحدث عن القراءة والعلم عدة مرات في آيات قليلة العدد، يقول تعالى.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

فقد اشتملت هذه الآيات على:

(١) القراءة وهي مفتاح العلم.

(٢) وعلى القلم وهو الوسيلة لحفظ العلم.

(٣) تقييد العلم بالكتابة.

(٤) وعلى مادة العلم.

فوردت القراءة مرتان، والقلم مرة، والعلم ثلاث مرات، وهذا يدل على أن الدين الإسلامي قائم على العلم والمعرفة، ويحث المسلمين على العلم والتعلم في كل زمان ومكان.

فهذه الآيات الكريمات تشير إلى كتاب الله المسطور وهو (القرآن) فينبغي أن يقرأ ويتدبر ما جاء فيه كما تشير إلى كتاب الله المنظور وهو الكون والحياة.

فالسموات والأرض وما بينها من سائر الكائنات الحية كخلق الإنسان وما أودع الله فيه من أسرار القدرة الإلهية، وعالم الحيوان وما يشتمل عليه من بديع صنع الله، وعالم النبات وما يشتمل عليه من أسرار والنجوم والكواكب والأفلاك وجميع الكائنات

كتاب الله المنظور الذي ينبغي للإنسان أن يكتشف أسراره ويتدبر صنعه ليعلم أن هذه الآيات الكونية دليل على وحدانية الخالق وقدرته، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاز والتكوين، وهذا ما يشير إليه أمر الباري سبحانه للإنسان بالتدبر الأمثل في أسرار الخلق والتكوين ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾.

وقد أشار المفسرون إلى هذه المعاني، فجاء في التفسير (ظاهرة إطلاق قوله: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ المراد به الأمر بتلقي ما يوحيه إليه ملك الوحي من القرآن، فالجملة أمر بقراءة الكتاب وهي من الكتاب[1].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ جئ في وصف الرب بطريق الموصول، ولأن في ذلك استدلالاً على انفراد الله بالإلهية، لأن هذا القرآن سيتلى على المشركين، لما تفيده الموصولية من الإيمان إلى علة الخبر، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خالق دل ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره الذي ليس بخالق ..فلما كان المقام مقام ابتداء كتاب الإسلام دين التوحيد كان مقتضياً لذكر أول الأوصاف على وحدانيته)[2].

قلت: وجميع مخلوقات الله هي كتاب الله المنظور وهي دليل على وحدانية الخالق.

ويبين العلامة الحجة الطاهر بن عاشور أغراض سورة العلق بهذه العبارة.

- تلقين محمد ﷺ الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل.
- والإيمان إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء.
- وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم.
- وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات، وخاصة خلقه الإنسان خلقاً عجيباً مستخرجاً من علقة فذلك مبدأ النظر.

**ثانياً: العلم في القرآن مقدم على العمل:**

---

(١) الميزان ٢٠/٣٢٣.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٧.

فهو الأساس القوي المتين الذي تقوم عليه العقيدة الصحيحة يقول تعالى :
﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ -١٩ محمد - فبالعلم الصحيح يصل الإنسان البعيد عن الهوى إلى الإيمان بوحدانية الخالق في ذاته وصفاته وأفعاله.

والعلم هو مفتاح العمل لذلك جاء الأمر بالعلم أولاً ثم بالاستغفار ثانياً ، فهذا من اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ، قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به (فأعلم أنه لا إله إلا هو واستغفر لذنبك)، وترجم البخاري في كتاب العلم من صحيحه (باب العلم قبل القول والعمل) لقول الله تعالى:
﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فبدأ بالعلم[1].

فقوله فأعلم: (فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله سبحانه، فمعنى الأمر على هذا هو الأمر بالثبات على العلم)[2].

فالأمر في قوله: (فأعلم) كناية عن طلب الدوام عليه لأن النبي ﷺ قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس، لأن العلم لا يحتمل النقيض، فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله بل لطلب الثبات فهو على نحو قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) ، وأما الأمر في قوله: (استغفر لذنب) فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبي ﷺ من قبل وعَمِله أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعَلَه أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن نقله من قبل[3].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦ : ١٠٥
(٢) الميزان ١٨/ ٢٣٨
(٣) التحرير والتنوير ٢٦ : ١٠٥

**ثالثاً: القيادة للعلم في العقيدة والحياة:**

يقرر القرآن أن القيادة للعلم في العقيدة والدين، وفي جميع شئون الحياة، فنجد القرآن يسجل محاورة إبراهيم لأبيه آزر طالباً منه إتباعه بسبب ما وصلي إليه - عليه السلام - من العلم الإلهي الحق، وهذا يعني أن القيادة والإتباع في أمور الاعتقاد ومسائل الدين والدار الآخرة للعلم الإلهي الحق - يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ -٤٣- مريم.

إعادة ندائه بوصف الأبوة تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة المستفاد من النداء الأول .قال في الكشاف (ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً، فلم يُسمّ أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم ليست معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي، فلا تستنكف، وهب أني إياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه)(١).

ذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم لأنه كان كبير ديانة قومه، وأراد إبراهيم علم الوحي والنبوءة وتفريع أمره بأن يتبعه على الإخبار بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالم بأن يُتبع مركوزة في غريزة العقول لم يزل البشر يتقصّون المعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتقاء ما يضر، قال تعالى:

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وهذا المبدأ العظيم الذي يقرره القرآن من قيادة العلم لشئون الحياة في أمر الدنيا والدين جميعاً يوضح المفسرون عند تفسير هذه الآية، فنجد صاحب الميزان يبين ذلك بقوله: (لما تبين له بطلان عبادته للأصنام ولغويتها، وكان لازم معناه أنه سالك طريق غير سوي عن جهل نبّهه أن له علماً بهذا الشأن ليس عنده وعليه أن يتبعه حتى يهديه إلى صراط - وهو الطريق الذي لا يضل سالكه لوضوحه - سوي هو في غفلة من أمره، ولذا نكره، إذ قال:

---

(١) انظر الكشاف للزمخشري.

(٢) التحرير والتنوير ١١٥/١٦.

(أهدك صراطاً سوياً) ولم يقل: أهدك الصراط السوي كأنه يقول إذ كنت تسلك صراطاً ولا محالة من سلوكه فلا تسلك هذا الصراط غير السوي بجهالة، بل اتبعني أهدك صراطاً سوياً فإني لذو علم بهذا الشأن، وفي قوله: (قد جاءني من العلم، دليل على أنه أُتي العلم بالحق قبل عوته، ومحاجته هذه)[1].

**رابعاً القيادة للعلم في شئون المال والحياة:**

فهذا القرآن يقرر على لسان نبي الله يوسف عليه السلام أن القيادة للعلم في شئون الحياة جميعاً، وعلى رأسها شئون المال والاقتصاد، ومن المعلوم عند أهل العلم أن المال عصب الحياة، فهذا يوسف عليه السلام يطلب من عزيز مصر أن يجعله على خزائن الأرض، وهو منصب رفيع المنزلة يساوي اليوم وزير المالية أو وزير الاقتصاد، ولا شك أن يوسف عليه السلام جدير بهذا المنصب الرفيع، لأن جميع المؤهلات التي تجعله مستحقاً لهذا المنصب متوفرة فيه يقول تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ - ٥٥ يوسف.

(على) هنا للاستعلاء المجازي، وهو التصرف والتمكن، أي اجعلني متصرفاً في خزائن الأرض (وخزائن) جمع خزانة - بكسر الخاء - أي البيت الذي يختزن فيه الحبوب والأموال.

والتعريف في (الأرض) تعريف العهد، وهي الأرض المعهودة، أي أرض مصر.

والمراد من (خزائن الأرض) خزائن كانت موجودة، وهي خزائن الأموال، إذ لا يخلو سلطان من خزائن معدودة لنوائب بلاده لا الخزائن التي زيدت من بعد لخزن الأقوات استعداداً للسنوات المعبر عنها بقوله (مما تحصنون).

واقترح يوسف عليه السلام ذلك إعداد نفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عَرَضاً من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالها.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤ ٥٨

وعلل طلبه ذلك بقوله: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع (إنّ) في صدر الجملة فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كليهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه، ليعلم الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلها وأهلها، وأنه حقيق بها لأنه متصف بما يفي بواجبها، وذلك صفة الحفظ المحقق للائتمان وصفة العلم المحقق للمكانة، وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي الناس إلى إتباعه، وهذا من قبيل الحسبة[1].

فهذه الآيات تشير إشارة واضحة إلى أن القيادة الروحية للوحي الإلهي المتلقى من الملأ الأعلى، والذي بلغه خاتم الأنبياء والمرسلين، ويقوم ببيانه للناس العلماء الربانيون إلى يوم القيامة، والوحي الإلهي هو العلم الحق الذي لا يخالطه شك، فالقيادة الدينية للعلم الإلهي، كما تشير هذه الآيات إلى أن القيادة في جميع شئون الحياة للعلم والعلماء المتخصصين في فروع العلم والمعارف المختلفة التي تتناول شتى مجالات الحياة، وهي قيادة مستنيرة بالهدايات الإلهية متمسكة بالشرائع السماوية، وبذلك تختلف عن القيادة التي يدعيها العلمانيون للحياة، فهي قيادة متمردة على نهج الله وشرعه وحكمه.

وبهذا يتضح بين القيادتين للحياة.

**خامساً: القرآن يحث على الرحلة في طلب العلم والتواضع مع العلماء:**

- سئل [2] موسى عليه السلام: هل يوجد من هو أعلم منك؟

ففكر موسى عليه السلام في أنه مرسل من قبل الله ويتلقى العلم والوحي منه، وكليمه فأجاب عليه السلام من هذا الاعتبار أنه لا يوجد من هو أعلم منه، فعاتبه الله بأنه كان ينبغي عليه أن يفوّض علم ذلك لله ويقول (الله أعلم).

وأخبره تعالى أنه يوجد عبد من عباد الله من ميزه الله وخصه ببعض العلم الذي لا يعلمه موسى وطلب موسى من الله تعالى أن يأذن له بلقاء هذا العبد الذي خصه الله ببعض العلم الذي لا يعلمه حتى يتعلم منه. فأذن الله له بذلك ورحل موسى وفتاه يوشع بن نوف للقاء

---

(١) التحرير والتنوير ٨/١٣ -٩. وانظر الميزان ١١ ٢٠٠

(٢) الروايات الواردة في هذه القصة في البخاري. ومسلم كتاب الفضائل باب من فضائل الخضر عليه السلام برقم (٢٣٨٠)، وانظر فتح القدير ٤٢١: ٤٢٥

الخضر عليه السلام ليتعلم منه .فلما التقى موسى عليه السلام بالخضر عليه السلام قال في تواضع جم ينبغي أن يتحلى به طالب العلم مع أستاذه:

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

الرشد: خلاف الغي وهو إصابة الصواب، وهو في الآية مفعول له أو مفعول به ، والمعنى قال له موسى هل اتبعك إتباعا مبنياً على هذا الأساس وهو أن تعلمني مما علمت لأرشد به، أو تعلمني مما علمت أمراً ذا رشد[1] وفيه إشارة إلى أن حق المعلم على المتعلم إتباعه والاقتداء به.

وهذا العلم الذي سأل موسى تعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع للأمة الإسرائيلية، فإن موسى مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلا من وحي الله إليه مباشرة، لأنه لذلك أرسله وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه...، وإنما رام موسى أن يَعلم شيئاً من العلم الذي خص الله به الخضر، لأن الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير، وقد قال الله تعالى تعليماً لنبيه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

وهذا العلم الذي أوتيه الخضر هو علم سياسة خاصة غير عامة تتعلق بمعيّنين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة.[2] فأجاب الخضر عليه السلام.

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ليدل على أن أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها ويتمسك بها طالب العلم تمسكاً شديداً هي الصبر.

وأكد جملة﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ بحرف (إن) وبحرف (لن) تحقيقاً لمضمونها من توقع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه، لأنه علم أنه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف.

---

(١ ) الميزان : ١٣/٣٤٢.

(٢ ) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٠.

ولما كان موسى - عليه السلام - من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجراء الأحكام على الظاهر علم أنه سينكر ما يشاهده من تصرفاته لاختلاف المشربين لأن الأنبياء لا يقرون المنكر.

وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يُقدم على متابعته إن شاء على بصيرة وعلى غير اغترار .وفي هذا أصل من أصول التعليم أن يُنبه المعلمُ المعلمَ بعوارض موضوعات العلوم الملقنة، لاسيما إذا كانت في معالجتها مشقة[1].

ومن المناسب في هذا المقام (الرحلة في طلب العلم) أن النبي ﷺ حث على الخروج في طلب العلم فقال:

(من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)[2].

**سادساً: مشورة العلماء وأهل الخبرة:**

يقرر القرآن مبدأ الشورى وهو من أعظم المبادئ التي تؤسس وتبنى عليه الدول، وقد جاء الإسلام بهذا المبدأ منذ مئات السنين، وقد أسس الرسول ﷺ دولة الإسلام في عصره على هذا المبدأ فأنشأ مجلساً للشورى يضم العلماء والقادة وأهل الخبرة في مختلف شئون الحياة، وهو ما يعرف في الإسلام بأهل الحل والعقد.

**من هم أهل الحل والعقد :**

وأهل الحل والعقد هم العلماء المختصون المجتهدون والرؤساء والقادة ووجوه الناس من أهل الخبرة في مختلفة شئون الحياة، وهم الذين يقومون باختيار الإمام نيابة عن الأمة، وأن لها الحق في عزله حال فسقه، وهذا يدلنا على أن الأمة هي مصدر السلطة التنفيذية، لأن حق التعيين والعزل ثابت لها.

وأهل الحل والعقد هم الذين يستشيرهم الإمام في جميع مصالح الأمة، ولا يقطع أمراً دونهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٢/١٥.

(٢) أخرجه الترمذي، والدارمي انظر مشكاة المصابيح رقم (٢٢٠) ٣٧٩/١.

**شروطهم:**

(١) العدالة الجامعة لشروطها، والعدالة هي ملكة تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة، والمراد بالتقوى امتثال المأمورات الشرعية واجتناب المنهيات الشرعية.

(٢) العلم والخبرة، كل واحد منهم في مجاله الذي تخصص فيه .فبالعلم يحسنون اختيار الإمام على الشروط المعتبرة في الإمامة ويصيرون محلاً لمشورته.

(٣) الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح، وبتدبير المصالح أقوم وأعرف .وهذه الشروط يقرها المنطق وتمليها المصلحة، وتوجبها المدنية الحقة، ويفهم منها أن هذه الهيئة بمثابة مجلس الشيوخ في عرفنا الحاضر، على أن يكون أعضاؤه من ذوي الكفاءات العلمية، لا المالية المادية، أو الطبقية.

ويلاحظ أن أهل الحل والعقد في السياسة لا يقتصر على (المجتهدين) الذين يتولون مهمة استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها، وإنما يشمل فئات أخرى لها ميزاتها في المجتمع وينبغي مراعاة مبدأ الاختيار والشورى من الأمة[1].

يقول تعالى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ -١٥٩ - آل عمران.

والمراد: شاورهم في أمور السياسة العامة ومصالح الأمة في الحرب والسلم، وكل شئون المصالح الدنيوية.

وكان رسول الله فعلاً يشاور أصحابه في الأمور كلها، تطيباً لقلوبهم وليستن الناس بفعله، قال الحسن رضي الله عنه (قد علم الله أن ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستن به من بعدهم).

---

(١) انظر الأحكام السلطانية للماوردي ٣ -٥ الفقه الإسلامي وأدلته ٦/٦٨٥ -٦٨٧.

وقال النبي ﷺ فيما ذكره الماوردى: (ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه فيما رواه الترمذي (لم يكن أحد أكثر مشاورة من رسول الله ﷺ) وللشورى فوائد كثيرة أهمها تقدير المستشارين، وإنضاج بحث الرأي المقترح بعد تقليب وجهات النظر واتحاد الناس على مسعى واحد، واختيار الرأي الأصوب[1].

**سابعاً: العلماء هم أهل الذكر:**

يقرر القرآن أن العلماء هم أهل الذكر، فينبغي على الأمة أن ترجع إليهم حتى ينيروا لهم الطريق، يقول تعالى ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهذه الآية تقرر أن سؤال أهل العلم واجب، وعلى العامة تقليد العلماء، ولا يجوز للعامة الفتيا في الدين للجهل بالمعاني التي يرتكز عليها التحليل والتحريم، كذلك كل من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به، لابد له من تقليد أحد العلماء[2].

وإذا توسعنا في استعمال مصطلح أهل الذكر وجدنا أن أهل الذكر هم العلماء المتخصصون في مختلف العلوم والفنون وهم أيضاً أهل الخبرة في مختلف شئون الحياة، ومعنى ذلك أن الإسلام يقدر العلم والعلماء، ويحترم الخبرات البشرية المختلفة في شئون الحياة، ويجعلهم المرجعية للناس التي تبني على أكتافهم الحياة وتزدهر الأمم والمجتمعات.

---

(١) التفسير المنير ١٤٠/٤ -١٤١ ، وانظر التحرير والتنوير ١٤٦/٤ -١٥٠ وانظر تفسير الآية رقم (٣٨) الشورى، التحرير والتنوير ١١/٢٥ ، والتفسير المنير ٨١/٢٥.

(٢) التفسير المنير ٢١/١٧.

**ثامناً : شهادة العلماء على أعظم قضية في الوجود :**

وقد بلغ من تكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء، وبيانه لمنزلتهم السامية الرفيعة، وتفضيلهم على من سواهم أن أشهدهم جل ذكره على أعظم وأخطر قضية في القرآن وهي وحدانية الخالق جل علاه بقوله تعالى:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ -١٨- آل عمران.

أصل الشهادة هو المعاينة أعني: تحمل العلم عن حضور وحس ثم استعمل في أدائها، وإظهار الشاهد ما تحمله من العلم، ثم صار كالمشترك بين التحمل والتأدية بعناية وحدة الغرض، فإن التحمل يكون غالباً لحفظ الحق والواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهادة تحفظاً على الحق والواقع. فبهذه العناية كان التحمل والتأدية كلاهما شهادة أي حفظاً وإقامة للحق.

وحقيقة الشهادة: خبر يصدُق به خَبَر مُخبر وقد يكذب به خبرُ آخر، وهي هنا في الآية أطلقت على الخبر الذي لا ينبغي أن يشك فيه.

فشهادة الله تحقيقه وحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك فشهد (وهو الله عز اسمه) على أنه لا إله إلا هو وإذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغني منه شيئاً من مال أو ولد أو غير ذلك من زينة الحياة أو أي سبب من الأسباب إذ لو أغنى شيء من هذه منه شيئاً لكان إلهاً دونه أو معتمداً إلى إله دونه منتهياً إليه ولا إله غيره.

وشهادة الملائكة تحقيقهم ذلك فيما بينهم، وتبليغ بعضهم ذلك إلى الرسل.

وشهادة أولي العلم تحقيقهم ذلك بالحجج والبراهين وذلك لما يشاهدونه من دلائل وحدانية، وآياته في الأنفس والآفاق، وقد ملأت قلوبهم ومشاعرهم ورسخت في عقولهم[1].

---

(١) انظر الميزان ١١٣/٣ ، ١١٥ ، والتحرير والتنوير ١٨٦/٤

ويبين القرآن منزلة العلم والعلماء بصورة واضحة لا لبس فيها ولا خفاء تدل على أن الإسلام دين قائم على العلم فلا مجال فيه للجهل أو الخرافة، أو الأساطير والطلاسم أو الكلمات التي لا معنى لها، ولا يقبلها منطق العقل، فلا يمكن أن يتصادم ما جاء به الإسلام من المبادئ والقيم والعقائد والشرائع مع العقول المستنيرة الخالية من الهوى والفطر السليمة التي لم تتلوث بمفاسد الدنيا يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ -٩ الزمر.

والاستفهام هنا مستعمل في الإنكار، والمقصود :

إثبات عدم المساواة بين الفريقين، وعدم المساواة يكنى به من التفضيل والمراد: تفضل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون.

والمعنى : الذين اتصفوا بصفة العلم، ودل عليه قوله عقبه: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي أهل العقول، والعقل والعلم مترادفان، أي لا يستوي الذين لهم علم فهم يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه وتجري أعمالهم على حسب علمهم، مع الذين لا يعلمون فلا يدركون الأشياء على ما هي عليه بل تختلط عليهم الحقائق وتجري أعمالهم على غير انتظام، كحال الذين توهموا الحجارة آلهة ووضعوا الكفر موضع الشكر.

وعدل عن أن يقول: هل يستوي هذا وذاك، إلى التعبير بالموصول إدماجاً للثناء (على فريق ولذم فريق بأن أهل الإيمان أهل علم وأهل الشرك أهل جهالة، فأغنت الجملة بما فيها من إدماج عن ذكر جملتين، فالذين يعلمون هم أهل الإيمان، والذين لا يعلمون هم أهل الشرك الجاهلون وفي ذلك إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم لأن كليهما نور ومعرفة حق، وأن الكفر أخو الضلال لأنه والضلال ظلمة وأوهام باطلة).

وأعظم العلم العلمُ بالله لأن الإنسان يكمُل به، وينتفع بهذا العلم في الدنيا والآخرة، ويتضرر بعدمه. وغيره من العلوم والمعارف لينتفع به الإنسان في الحياة الدنيا يفنى بفنائه، وذلك كانتفاع الإنسان بالمال في الدنيا ويفني بفنائه.

قلت: العلوم والمعارف الدنيوية وإن شئت فقل المادية ينتفع بها المسلم في الدنيا، ويثاب عليها في الدار الآخرة إن أحسن نيته، وجعل علمه لخدمة الإسلام والمسلمين، كما فعل أجدادنا الذين برعوا في الطب والفلك والهندسة وغيرها من المعارف والعلوم، بل بنت أوروبا الحديثة حضارتها على معارفهم وعلومهم.

وهذا المعنى الذي تشير إليه الآية الكريمة يقرره النبي ﷺ في أحاديث كثيرة وردت عنه يبين فيها فضل العالم وعظيم منزلته، فعن أبي أمامة قال: ذُكِر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)[1].

(١) أخرجه الترمذي أنظر مشكاة المصابيح حديث (٢١٣) ١/٣٧٤.

## أثر العلم في نفوس العلماء الربانيين

يبين القرآن أن من آثار العلم النافع التي يتركها ويؤثر بها في قلب العالم وسلوكه ما يورثه من معرفة الله ومراقبته في السر والعلن وخشيته تعالى، يقول جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ ٢٨ -فاطر.

أي إنما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم .وإذا علم ذلك دل بالالتزام على أن غير العلماء لا تتأتى منهم خشية الله فدل على أن البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم مختلفون، وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية العلماء والقصر المستفاد من (إنما) قصر إضافي، أي لا يخشاه الجهال، وهم أهل الشرك فإن من أخص أوصافهم أنهم أهل الجاهلية، أي عدم العلم، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء، والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشية الله.

وفي هذا المقام ترد مسألة علمية هامة وهي:

- ما المراد بالعلماء في الآية :

**(١) المراد بالعلماء:**

العلماء بالله وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية، ثم إن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتاً كثيراً.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد: (والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة)[1].

**(٢) المراد بالعلماء في الآية:**

العالم بعلوم الطبيعة والحياة وأسرار الكون .إذا ابتغى بعلمه وجه الله والدار الآخرة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠٤ -٣٠٥.

فلله كتابان: كتاب مسطور وهو القرآن، وكتاب منظور وهو الكون، وما يشتمل عليه من بديع صنع الله فيه، فمن تدبر القرآن التدبر الأمثل وتخصص في شرائع الإسلام، وابتغى بذلك الله والدار الآخرة وصار من العلماء الربانيين أورثه ذلك خشية الله وكذلك كل من تخصص في العلوم والمعارف المتعلقة بخلق الإنسان والحيوان والنبات، والفلك والكون وما فيه، وحسنُت نيته وقصد الوقوف على أسرار صنع الله في خلقه أثمر ذلك خشية الله في قلبه.

والمعنى: أي إنما يخاف الله بالغيب العالمون به وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، ومنها عظمة قدرته على صنع ما يشاء وفعل ما يريد.

فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له، ومن لم يخش الله ليس بعالم.[1]

ويأمر الله تعالى بالتدبر الأمثل للقرآن الحكيم لما يترتب على هذا التدبر من العلم بكون القرآن هو الحق، وبكونه من عند الله وأنه معجز، ولما يترتب على التدبر أيضاً من معرفة حدود الله وشرائعه فيعلمها الناس ولا يتجاوزونها، ولما يترتب على تدبر القرآن من معرفة كنوزه، والوقوف على أسراره وحكمه البالغة وأمثاله، ومحكمه ومتشابه وأخبار القرون الأولى والأمم السابقة والاتعاظ بما حدث لهم ولما يترتب على تدبر القرآن من استنباط أحكامه ومعرفة حلاله وحرامه.

ولما يترتب على التدبر الأمثل للقرآن الحكيم من الرسوخ في العلم الذي يورث خشية الله.

ومن المعلوم أن تدبر القرآن لا يكون إلا بالعلم الصحيح، والنظر الثاقب والفكر المستنير، والعقل الواعي. يقول تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ -٨٢ النساء

تدبر: إذا نظر في دبر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته فمعنى (يتدبرون القرآن) يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفاصيله.

---

(١) التفسير المنير ٢٢/٢٦٠

وثانيها: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق.(١)

ولا شك أن تدبر الناس للقرآن يترتب عليه تصحيح مناهج الناس في هذه الحياة الدنيا، ويرسم لهم خططهم ومستقبلهم الأمر الذي يترتب عليه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وهذا النص القرآني الحكيم يفيد وجوب تدبر القرآن لمعرفة معانيه، هذا أمر مفروض على كل مسلم، ولا تكفيه التلاوة من غير تأمل ونظر في معانيه وأهدافه .وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال، وإبطال التقليد في العقائد وأصول الدين(٢).

**ضريبة العلم وثمرته:**

ثمرة العلم العمل به، وضريبته بيانه للناس وتعليمه للخلق للأخذ بأيديهم من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، في العقيدة والمنهج والسلوك، يقول تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ - ١٨٧ آل عمران.

﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هم اليهود ، وهذا الميثاق أخذ على سلفهم من عهد رسولهم وأنبيائهم .وكان فيه ما يدل على عمومه لعلماء أمتهم في سائر أجيالهم إلى أن يجئ رسول.

جملة(لتبيننه للناس) بيان للميثاق فهي حكاية اليمين حين اقترحت عليهم..

وقد أخذ عليهم الميثاق بأمرين هما بيان الكتاب أي عدم إجمال معانيه أو تحريف وتأويله، وعدم كتمانه أي إخفاء شيء منه(٣).

---

(١ ) التحرير والتنوير ١٣٧/٥.

(٢ ) التفسير المنير ١٧٣/٥.

(٣ ) التحرير والتنوير١٩١/٤.

**ويفهم من هذا النص الإلهي واجبات ثلاثة:**

(١) توضيح العلماء كتاب الله وإفهامه للناس وإظهار ما فيه من عظة وأسرار في الأحكام العامة والخاصة.

(٢) تبيين الدين للمسلمين حتى يفهموه على حقيقته ويعرفوا أنه طريق الخلاص الوحيد من تخلف الأمة وضعفها وفسادها.

(٣) توضيح أحكام الدين لغير المسلمين ودعوة الناس إلى صراط مستقيم حتى يهتدوا به[١].

**الإسلام يحرم كتمان العلم:**

يحرم الإسلام كتمان العلم لما يترتب على كتمانه من الأثر السيئ في أخلاقيات الفرد والجماعة، إلى غير ذلك من آثار سيئة، فعن أبي هريرة قال: (قال رسول الله ﷺ (من سُئل عن علم علمه ثم كتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[٢].

وفي هذا المقام يذكرنا التاريخ أن الأمة الإسلامية كانت لها دولة لا تغيب عنها الشمس، وكانت لها حضارة أقامها أبناؤها على العلوم والمعارف في جميع ميادين الحياة: في الطب والهندسة والكيمياء والفلك ...الخ غير أن هذه الحضارة الإسلامية قامت على المبادئ الأخلاقية والقيم والمثل العليا، ومن هذه المبادئ التي كانت نصب أعين العلماء المسلمين مبدأ (من سئل عن علم علمه ثم كتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار) لذلك لما جاء الأوروبيون يطلبون العلم والمعرفة من العلماء المسلمين وكانت أوروبا تعيش في ظلمات الجهل والخرافة علّمهم علماؤنا وأجدادنا، وفتحوا لهم أسرار العلم والمعرفة في جميع العلوم والفنون، رعاية لهذا المبدأ سالف الذكر وأن العلم حق لجميع البشر، ولا يصح كتمانه عن أحد فأخذت أوروبا علوم المسلمين ومعارفهم وبنت عليها الحضارة الأوروبية الحديثة ومن المعلوم أن الحضارة الأوروبية حضارة مادية عندها الغاية تبرر الوسيلة، فيصلون إلى تحقيق مصالحهم في بلدان العالم الإسلامي بأية وسيلة ولو دمروه وحطموا ما فيه تحطيماً. ولا أدل

---

(١) التفسير المنير ٤/٢٠٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داؤود في سننه، والترمذي في سننه، انظر مشكاة المصابيح حديث (٢٢٣) ١/٢٨٠.

على ذلك من دفن الأوروبيين النفايات النووية في دول أفريقيا وهي نفايات تهلك الزرع والنسل والإنسان والحيوان، ونشرهم جميع أنواع المخدرات المدمرة للعقل البشري في دول العالم الإسلامي، وعملهم على إضعاف الأمة الإسلامية وتمزيق وحدتها بكل وسيلة من الوسائل.

وأخفت أوروبا وكتمت ما توصلت إليه من العلوم والمعارف المتقدمة عن أبناء الأمة الإسلامية لأنهم (أي الأوروبيون) يريدون لأمتنا أن تعيش في ظلام الجهل أبد الأبدين، توجهها أوروبا كيف تشاء، وتستولي على ثرواتها التي وهبها الله بالأسلوب الذي تريد، ولأن العلم والمعرفة أساس قوة الأمم وبناء الحضارات وهذه الأمة الإسلامية تريدها أوروبا ذليلة ضعيفة تابعة لهم، لا مستقلة قوية، فيا أمة الإسلام أفيقوا من سباتكم العميق، وانهضوا في جميع المعارف والعلوم، وابنوا عليها أمتكم الإسلامية القوية.

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم
لا بارك الله في جهل وإقلال

## العلم صمام الأمان والأمان للأمة الإسلامية:

يقرر القرآن مبدأ عظيماً هو الأساس المتين والقاعدة الراسخة التي تقوم عليه الدولة الإسلامية، وهو يتعلق بأمن الأمة وتقدمها الحضاري في شئون الحياة، هذا المبدأ هو:

القوة المادية، والقوة الفكرية والعقلية يقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ ص: ٤٥ -٤٦.

فالأيدي: إشارة إلى القوة المادية التي أمر الله بإعدادها على العلوم المناسبة لكل عصر، في قوله: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ٦٠: الأنفال.

وأما الأبصار فتشير إلى القوة الفكرية والعقلية التي تقوم عليها حضارة الأمة في جميع شئون الحياة.

# المبحث الثالث

## إثبات الوحدانية في ضوء القرآن الكريم

ويشتمل على :

درجات التوحيد ومراتبه – الفرق بين الواحد والأحد – معنى التوحيد.

الأدلة على وحدانية الله سبحانه وتعالى:

دليل الخلق – دليل النظام الكوني – عدم فساد الكون.

حقيقة التوحيد:

الإيمان بوجود الله : - وجود الله حق - أدلة القرآن على وجود الله.

عوائق الإيمان بوجود الله وحدانيته.

# إثبات الوحدانية في ضوء القرآن الكريم

التوحيد لغة: الحكم بأن الشيء واحد والعلم بأنه واحد.

والتوحيد ثلاثة أشياء: - معرفة الله تعالى بالربوبية.

- والإقرار بالوحدانية.
- ونفي الأنداد عنه جملة.

وفي اصطلاح أهل الحقيقة : تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الإفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان.[1]

قلت: معناه نفي مشابهة الله للمخلوقات في ذاته، وصفاته وأفعاله.

وقال التهانوي: التوحيد : لغة جعل الشيء واحداً وفي عبارة العلماء اعتقاد وحدانيته تعالى.

---

(١ ) التعريفات للجرجاني مادة (التوحيد) ٦٩.

# درجات التوحيد ومراتبه

(١) التوحيد العلمي : وهو أثبات وحدانية الخالق بالبراهين والأدلة، فيشمل الأدلة النقلية، السمعية، الواردة في الكتاب والسنة، ويشمل الأدلة الكونية التي استدل بها القرآن على وحدانية الخالق وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ -١٦٣ البقرة.

فهذه الآية تثبت أعظم قضية في الوجود وهي وحدانية الله سبحانه وتعالى، ثم جاء بعدها الدليل الكوني المثبت للوحدانية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ -١٦٤ البقرة[1].

والإيمان بوحدانية الخالق فرض، ومن المعلوم أن الفرض لغة: الوجوب، وفي الشرع: هو ما ثبت وجوبه بدليل لا شبهة فيه حتى يكفر جاحدة، وذلك كالمتواتر من نصوص الكتاب والسنة[2].

(٢) التوحيد التحقيقي :هو أن يعلم علم يقينياً أن الموجود الحقيقي هو الله لأنه سبحانه الباقي بعد فناء جميع المخلوق يقول تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ٢٧ - ٢٦ الرحمن.
فيعتقد المسلم أن ليس في الوجود فعل وصفة وذات إلا لله حقيقة.

---

(١ ) أنظر كشاف اصطلاح الفنون ٥٢٩/١.
(٢ ) أنظر الكليات / ٦٨٩.

(٣) التوحيد الوجداني وإن شئت فقل: التوحيد العيني وإن شئت فقل: توحيد المشاهدة.

وهو عبارة عن توحيد الأفعال: وهو إفراد فعل الحق عن فعل غيره بمعنى إثبات الفاعلية لله تعالى مطلقاً ونفيها عن غيره، ودليلة من الشرع قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ -٩٦ الصافات.

وهذا النوع من التوحيد يؤيده ما ورد في كتب السنة عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ التقى به يوماً فقال: كيف أصبحت؟ فقال جابر: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، فقال له الرسول ﷺ: لكل حق حقيقة، فما هي حقيقة إيمانك؟ فقال جابر: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها (أي استوى عندي الذهب والتراب) وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة ينعمون، وإلى أهل النار في النار يعذبون، (فقال له النبي ﷺ عرفت فالزم).

وهذه الرواية تفيد أن جابر بن عبد الله بلغ إيمانه بالغيبيات الواردة في الشرع إلى إيمان المشاهدة فكأنه يستحضر صورتها عند العمل، فإذا أقدم على عمل يقربه من الجنة استحضر الجنة أمامه وإذا وسوس له الشيطان بعمل يقربه من النار امتنع واستحضر النار أمامه.

وتوحيد صفاته: وهو إفراد صفته عن صفة غيره بمعنى إثبات الصفة لله تعالى مطلقاً ونفيها عن غيره .إذ ليس هناك إله غيره، فليس هناك أحد يغني منه شيئاً من مال أو ولد أو غير ذلك من زينة الحياة الدنيا أو أي سبب من الأسباب، إذا لو أغنى شيء من هذه منه شيئاً لكان إلهاً دونه، أو معتمداً إلى إله دونه منتهياً إليه، ولا إله غيره[1].

وتوحيد الذات وهو أفراد الذات القديمة عن الذوات بمعنى إثبات الذات لله تعالى مطلقاً ونفيها عن غيره لأنه سبحانه الباقي بعد فناء كل شيء فلا موجود بحق سواه[2].

---

(١) الميزان ١١٣/٣.

(٢) انظر كشاف اصطلاح الفنون ٥٢٩/١.

**الفرق بين الواحد والأحد :**

قال الأزهري : الفرق بين الواحد والأحد في صفاته تعالى أن الأحد بُني لنفي ما يُذكر معه العدد ، والواحد اسم لمُفتتح العدد[١].

و(أحد) صفة من صفات الله تعالى لا يشاركه فيها أحد ، ويراد (بالأحد) ما يكون واحداً من جميع الوجوه ، لأن الأحدية هي البساطة الصرفة عن جميع أنحاء التعدد عددياً أو تركيبياً أو تحليلياً[٢] أو بعبارة أخرى فالواحد هو المركب من أجزاء وهو مفتتح العدد ، فيعقبه باقي الأعداد الأخرى ، وأما الأحد فهو المنزه عن جميع ذلك ، فلا شبيه له ولا مثيل في ذاته وصفاته وأفعاله.

**توحيد الله تعالى**

توحيد الله تعالى: هو الإيمان بأن الله واحد لا شريك له في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، لا كما زعم المشركون عبّاد الأصنام والنصارى عبّاد عيسى ، واليهود عبّاد عزير ، والمجوس عباد النار ، فهو سبحانه رب العالمين وخالق الكون ومديره ، وهو المستحق للعبادة وحده.

**الأدلة على وحدانية الله سبحانه وتعالى**

**١ - دليل الخلق:**

كما دل هذا الكون بخلقه وإبداعه على وجود الله سبحانه ، وأنه الخالق المدبر دل كذلك على وحدانية الله وأنه المتفرد بالخلق وحده فكل ما في هذا الكون يشهد أن خالق هذا الكون واحد لا شريك له يقول تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ

(١) تهذيب اللغة للأزهري، عمدة الحفاظ ٤/٣٣٣.
(٢) الكليات /٥٣.

مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ ١٦٣ – ١٦٤ البقرة.

**٢ -دليل النظام الكوني الموحد:**

إن الناظر إلى الكون، والمتأمل في عجيب نظامه وإحكام صنعه، ليرى أنه يسير على نظام واحد ينسق بين أجزائه جميعاً، فلا خلل ولا اضطراب في عالم النجوم والكواكب والمجرات، ولا خلل ولا اضطراب في تعاقب الليل والنهار ...الخ فهذا النظام المحكم في صنع الله يدل على أنه صدر عن إله واحد حكيم عليم .يقول تعالى:

﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ -٨٨ النمل

يقول تعالى :

﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ ٣ -الملك التفاوت بوزن التفاعل: شدة الفوت ، والف: البعد ، ويقال :تفوّت الأمر.

وقيل : إن تفوّت، بمعنى حصل فيه عيب .وهو هنا مستعار للتخالف وعدم التناسق، لأن عدم المناسبة يشبه البعد بين الشيئين تشبيه معقول بمحسوس، والخطاب لغير معين، أي لا ترى أيها الرائي تفاوتاً، والمقصود منه التعريض بأهل الشرك إذ أضاعوا النظر والاستدلال بما يدل على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب، وذلك يمكن لكل من يبصر[1].

**٣-عدم فساد الكون**

استدل القرآن على وحدانية الخالق، وانفراده بالخلق والتدبير ونفى الشريك في الإلوهية بعدم وجود الفساد في الكون، وهذا الدليل له واقع في حياتنا فمن المسلّم لدى كل عاقل أن السفينة لا يقودها إلا ربّان واحد، ولو تعدد رؤساؤها لاضطربت وغرقت، وقد استدل

(١) التحرير والتنوير ٢٩، ١٧.

الإمام أبو حنيفة على وجود الخالق ووحدانيته، وأفحم الدهريين بنحو هذا الدليل في قصة مشهورة وردت عنه.

ومن المعلوم لدى العقلاء أن الجيش لا يصلح إلا بقائد واحد بل المصنع والشركة والأسرة لا يديرها إلا مدير واحد، فجميع النظم الاجتماعية التي نعيشها في حياتنا تشهد بصحة هذا المبدأ أن الشيء لا يصلح إلا بربّان وقائد واحد وإلا فسدت واضطربت واختلت يقول تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ٢٢ ☐ ٢١ الأنبياء.

(إن النزاع بين الوثنيين والموحدين ليس في وحدة الإله وكثرته بمعنى الوجود الموجود لذاته الموجد لغيره فهذا مما لا نزاع في أنه واحد لا شريك له، وإنما النزاع في الإله بمعنى الرب المعبود والوثنيون على أن تدبير العالم على طبقات أجزائه مفوضة إلى موجودات شريفة مقربين عند الله ينبغي أن يعبدوا حتى يشفعوا لعبادهم عند الله، ويقربهم إليه زلفى كرب السماء ورب الأرض ورب الإنسان وهكذا وهم آلهة من دونهم والله سبحانه إله الآلهة وخالق الكل كما يحكيه عنهم قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الزخرف. ٨٧

والآية الكريمة إنما تنفي الآلهة من دون الله في السماء والأرض بهذا المعنى، لا بمعنى الصانع الموجد الذي لا قائل بتعدده، وتقرير حجة الآية أنه لو فرض للعالم آلهة فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتاً متباينين حقيقة، وتباين حقائقهم يقضي بتباين تدبيرهم فيتفاسد التدبيرات وتفسد السماء والأرض ، لكن النظام الجاري نظام واحد متلائهم الأجزاء في غايتها فليس للعالم آلهة فوق الواحد وهو المطلوب). [1]

(١) الميزان ٢٦٦/١٤ -٢٦٧، انظر التحرير والتنوير ٣٨/١٧.
(٢) انظر الميزان ١٥ -٦١ -٦٢، والتحرير والتنوير ١١٣/١٨.

وخلاصة ما تشير إليه الآية:

فلو كان لهذا الكون خالقان لفسد الكون، لأنها لو اتفقا إرادة وخلقاً فيعني أن كل واحد منها يحتاج للآخرة والإله لا يحتاج، وإن اختلفا فسد الكون لا محالة، ولو كان في الكون إلهان يعبدان ويطاعان من دون الله لفسد الكون أيضاً، فلا يستحق العبادة مع الله أحد غير الله تعالى.

ومن الآيات التي ذكرها الله سبحانه للدلالة على وحدانيته قوله جل شأنه:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ المؤمنون: ٩١

ففي هذه الآية دليلان على بطلان تعدد الآلهة.

أ - قوله تعالى: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي لا نفرد كل منهم بما خلق، فيحصل التباين والاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع، فلا ينتظم الكون: والمشاهد أن هذا الكون وجدَ على أتم نظام وأبدع صنع.

ب - وقوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي لقهر كل إله الآخر وغلبه، والعقل يقتنع بوجود التحارب والتغالب عند تعدد الحاكم.

ومن ظن أن الإله يمكن أن يتفق مع غيره جرده من معناه، وأخرجه عن حقيقته، وجعله مقهوراً بمقتضى الاتفاق لأن معنى الإله: أنه صاحب السلطان المطلق والنفوذ التام والقهر والغلبة.

# حقيقة التوحيد

فصّل القرآن حقيقة التوحيد ومعانيه ، ولم يترك القرآن أي حقيقة من حقائق إلا وبينها ، وأقام الدليل عليها ، وأهم هذه الحقائق.

**١ - إفراد الله سبحانه بالحق والإيجاد.**

فالله وحده هو الذي خلق هذا العالم بكل ما فيه وإن شئت فقل خلق السموات والأرض، وما بينها من عجائب المخلوقات.

والخلق في اللغة: التقدير بمعنى المساواة بين شيئين يقال: خلقت النعل إذا قدرته، فأطلق على إيجاد شيء : أي على مقدار شيء سبق له الوجود.

والخلق: إحداث أمر يراعى فيه التقدير حسب إرادته وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى، وأما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام[١].

فكل فعل وُجِدَ من فاعله مقدراً لا على سهو وغفلة فهو الخلق[٢].

**والخلاصة:** أن الخلق يستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا اقتداء، ومنه: (خلق السموات) سورة الأنعام. ويستعمل في إيجاد الشيء من شيء نحو: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ سورة النساء[٣].

ومن المعلوم أن الخلق يقتضي الأمور الآتية:

---

(١) انظر الكليات/٤٢٩.
(٢) الكليات /٤١٤.
(٣) التوقيف/٣٢٤.

١- **الرزق**: هو يقال للعطاء الجاري دنيوياً كان أو دينياً وللنصيب، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به وفي (الجوهري) [١] : هو ما ينتفع به ولا يلزمه أن يكون مأكولاً.

وفي(التبصرة) يقع عندنا على الغذاء والملك جميعاً.
وفي(الكفاية) : يقع عندنا على الملك وعلى الذي يصل إلى العبد بواسطة.
ولا يسمى الحرام رزقاً عند المعتزلة، وعند أهل السنة يسمى رزقاً غير أن صاحبه استعجله، ولو لم يستعجله لوصل إليه، وعلل المعتزلة قولهم بأن إنفاق الحرام بمعزل عن المدح واستدل أهل السنة بحديث : ( والله لقد رزقك الله حلالاً طيباً فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل لك من حلاله.

والرزق الحاصل للعباد باختيارهم كحصوله بالتجارات وقبول الهبات والصدقات والغصوب والسرقات وغير ذلك ، أو بغير اختيارهم كحصوله بالإرث فهذه الأفعال كلها مخلوقة لله تعالى، فكان الحاصل بها أيضاً مخلوقاً لله تعال :

والرزق الحسن: هو ما يصل إلى صاحبه بلا كد في طلبه، وقيل ما وجد غير مرتقب ولا محتسب ولا مكتسب والرزَّاق لا يقال إلا لله تعالى، والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له [٢].

٢- **الإحياء والإماتة**: يقول تعالى:
﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ -٢ الملك.

٣- **التدبير** : استعمال الرأي بفعل شاق، وقيل : التدبير النظر في العواقب بمعرفة الخير، وقيل: التدبير إجراء الأمور على علم العواقب وهي لله تعالى حقيقة وللعبد مجازاً [٣] يقول تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ -٣ يونس.

---

(١) انظر تهذيب اللغة للجوهري.
(٢) الميزان ١٥/٣٢٧.
(٣)الميزان ١٩/٢٠.

أي يقضي ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والكمال[٣]

وقد فصل القرآن أنواع الخلق في آيات كثيرة وأجمله بقوله سبحانه ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ -٦٢ الزمر.

و لا يستطيع أحد من خلقه أن يدعى أنه الخالق أو الرازق أو المدبر لذرة من السماء أو في الأرض.

﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ -٢١١الشعراء فالقرآن وما جاء فيه هو الحق الذي لا يسع المبطلون إنكاره، وما أثبته الرحمن لنفسه لا يسع الضالون ادعاءه قال في مجمع البيان:

(ومعنى قول العرب : ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب) .أ .هـ

والوجه في أنه لا ينبغي لهم أن يتنزلوا به أنهم خلق شرير لا همّ لهم إلا الشر والفساد والأخذ بالباطل وتصويره في صورة الحق ليضلوا به عن سبيل الله، والقرآن كلام حق لا سبيل للباطل إليه فلا يناسب حيلهم الشيطانية أن يلقوه إلى أحد.

وقوله:﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي وما يقدرون على التنزّل به لأنه كلام سماوي تتلقاه الملائكة من رب العزة فينزلونه بأمره في حفظ وحراسة منه تعالى[١].

ويقول تعالى:

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ الطور ٣٥ -٣٦

**المراد** : أم أُحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق فلا حاجة لهم إلى خالق يدبر أمرهم.

وقوله : ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي لأنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يربهم ويدبر أمرهم بالأمر والنهي أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أرباباً آلهة ويجلوا من أن يستعبدوا ويكلفوا بتكليف العبودية بل هم قوم لا يوقنون [1].

**٤ -إفراد الله سبحانه في الملك:**

إذا كان الله سبحانه هو الخالق، فهو المالك الحقيقي لخلقه، قال تعالى:

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ ٢ : الفرقان

﴿ ٱلْمُلْكِ ﴾ النافذ الأمر في ملكه، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره، وتصرّفه فيما يملكه، فالمَلِك أعمّ من المالك، والله تعالى مالك المالكين كلهم والمُلاك، إنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى[2].

فالمُلك : التصرف بالأمر والنهي في الأمور.[3] وما يملكه الإنسان هو مسخرٍ وعطاء من الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ -١٣ الجاثية.

وإذا تقرر أن الله سبحانه له الخلق والأمر كله فلا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مدبر إلا الله وحده، ولا مالك إلا الله، فإن هذا يوجب تعلق قلوبنا بالله عز وجل وحده، والتوكل عليه وسؤاله والإفتقار إليه، لأنه سبحانه خالقنا ورازقنا ومالكنا.

---

(١) تفسير أسماء الله الحسني /٣٠.
(٢) أسماء الله الحسني /٣٠.
(٣) التوقيف /٦٧٥.

يقول تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ -١٥ فاطر.

فجميع الخلائق تحتاج في وجودها ومعايشها إلى الله تعالى، ولا يحتاج الله إلى أحد من خلقه ، فهو الغني عما سواه، والمراد بتوكل العبد على الله: هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس[1] .

فينبغي على العبد المسلم أن يتخذ الله وكيلاً، لأن الوكيل : هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته بأنه يستقل بأمر الموكول إليه، قال أبو اسحاق: الوكيل في صفة الله تعالى: الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق [2] .

**٤- إفراد الله سبحانه في الحكم والتشريع والأمر والنهي:**

الله سبحانه وتعالى هو الخالق لخلقه والمالك لهم، والمدبر لأمرهم، فيجب ألا نبتغي غيره سبحانه حكماً .يقول تعالى:

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ -٥٧ الأنعام.

ويقول تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ الأنعام: ١١٤.

فهذه الآيات تثبت أن الحكم في هذا الكون الواسع الأرجاء، وفي هذه الحياة لخالق الكون وواهب الحياة.

وقد فصّل سبحانه في كتابه الخاتم المنزل على سيدنا محمد القوانين الإلهية المُنظمة لجميع شئون الحياة الصالحة للعمل بها في كل زمان ومكان.

ومعنى ذلك: رفض الخضوع والإتباع لكل حكم غير حكم الله، لأنه من أهواء البشر ولم يأذن به الله .ورفض الانقياد لكل أمر غير أمر الله لأنه لا يصدر عن منهج الله، ورفض

---

(١) اسماء الله الحسني/٥٤.
(٢) التفسير المنير ٢١/٢٣٠

الإتباع أو العمل بكل قانون بشري غير شرع الله، لأن القوانين البشرية لا تحقق العدالة الكاملة وتراعي مصالح شخصية لبعض الطوائف من الناس، وتشتمل على الكثير من الثغرات وبذلك لا تطبق على جميع الناس على جهة المساواة، وأما القوانين الإلهية فالناس أمامهم سواسية لا فرق أمامهم بين غني وفقير وعالم لا شأن له ووزير.

ولذلك يجب على كل مسلم رفض كل وضع أو فهم أو فكرة لم يأذن بها الله، ومن قَبل شيء من ذلك واتبعه فقد خالف حقيقة أساسية من حقائق التوحيد يقول تعالى:

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ﴾ ٤٠ – يوسف.

ويقول تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ -٤٩ المائدة

ويأمر الله تعالى النبي وأمته إلى يوم القيامة باتباع وتطبيق ما جاء في الوحي المنزل من قبل الله عز وجل فقد ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ ﴾ -٢ الأحزاب.

ما يوحى : من القرآن ، أي : اتبع الوحي في كل أمورك، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات وأهواء الكافرين والمنافقين ولا من الرأي البحت فإن فيما أوحي إليك ما يغنيك عن ذلك.

وفي الآية زجر عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمر بجهادهم ومنابذتهم، وفيه دليل على ترك إتباع الأراء مع وجود النص، فلامساغ للاجتهاد في مورد النص والخطاب للنبي ﷺ ولأمته [1].

**٦- إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة:**

فإذا كان الله سبحانه هو الخالق المالك الحاكم الشرع فيجب أن يكون الطاعة والعبادة لله وحده.

---

(١)التفسير المنير ٢١/ ٢٣٠

فالعبادة حق الله على العباد، وهي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين.

فقد اتفقت جميع الرسالات الإلهية على الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، والالتزام بعبادة الله والتمسك بشرائعه والتخلي عن رذائل الأخلاق والتحلي بمحاسنها يقول تعالى

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ -٢٥ الأنبياء

فالله وحده هو المستحق لجميع أنواع العبادة الظاهرة مثل:

الصلاة، الزكاة، الصيام، الدعاء ...

والباطنة مثل: الخوف، الرجاء، التوكل ...

وقد بيّن سبحانه الغاية من خلق الإنسان بقوله جل ذكره: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦.

**٧- إفراد الله سبحانه بأسمائه وصفاته، وأفعاله:**

فالله سبحانه لا شريك في ذاته، ولا في أسمائه ولا في صفاته، ولا أفعاله ... وصفاته سبحانه لا تماثل صفات المخلوقات قال تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشورى: ١١.

فالله سبحانه منزه عن مماثلة أحد من مخلوقاته في جميع أسمائه وصفاته وأفعاله، ولا يمكن لأحد من خلقه مها علت منزلته عند الله أن يحيط به علماً سبحانه فلا يعلم حقيقة الله إلا الله، يقول تعالى:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ ٣١٠ طه.

والمؤمن يتعرف على الله ويدعوه بأسمائه وصفاته:

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ ١٨٠: الأعراف.

وحتى ندرك الفرق بين صفات الله وصفات البشر نتأمل في صفة العلم الإلهي، فالله سبحانه يعلم الأشياء بجزئياتها ويعلم جميع المعلومات ما كان منها وما سيكون. فعلم الله

أزلي لا يحيط به حد، وأما علم الإنسان فعلم محدود يسبقه جهل، فالإنسان قبل أن يعلم الشيء كان جاهلاً به وعلم البشر قابل للنسيان.

وإذا أردنا أن ندرك الفرق بين فعل الله وأفعال البشر فالله عز وجعل يعدي أثر فعله إلى غيره فيجعل الضعيف الذي لا يقوى ولا يقدر على شيء قوياً، والمريض صحيحاً والأعمى بصيراً، وأما منتهى ما يفعله البشر فهو أن يساعد الضعيف يحمل ما لا يقدر على حمله، ويصف الدواء للمريض لعله يشفى، ويأخذ بيد الأعمي وينبغي على المسلم أن يتعرف على أسماء الله وصفاته العليا ويستحضر معانيها في كل شأن من شئون حياته وبذلك يكون لمعرفة الأسماء والصفات أكبر الأثر في توجيه وتقويم حياه المسلمين، وينبغي على المسلم أن يدرك أن معاني صفات الله ترجع إلى المعاني الآتية:

(١) صفات الجمال: كالحليم.

(٢) صفات الكمال: كالعليم.

(٣) صفات الجلال: كالمنتقم.

**وفي هذا المقام يقول الجرجاني:**

الصفات الذاتية: هي ما يوصف الله بها ولا يوصف بضدها نحو القدرة والعزة والعظمة وغيرها.

الصفات الفعلية: هي ما يجوز أن يوصف الله بضده كالرضا والرحمة والسخط والغضب وغيرها.

الصفات الجمالية: ما يتعلق باللطف والرحمة.

الصفات الجلالية: ما يتعلق بالقهر والعزة العظمة والسعة[1].

(١) التعريفات / ١٢٣.

# الإيمان بوجود الله تعالى

الإيمان بالله تعالى هو الإعتقاد الجازم بأن الله حق وأنه واحد لا شريك له، وأنه متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، وأنه وحده سبحانه المستحق لأن نعبده ونطيعه.

والإيمان في اللغة التصديق بالقلب، والدليل على ذلك ما حكاه القرآن على لسان إخوة يوسف وقولهم لأبيهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ١٧ :يوسف.

**الإيمان في الشرع:**

والإيمان في الشرع ينقسم إلى قسمين:

(١) إيمان ينجي من دخول النار أصلاً بإذن الله تعالى وهو الاعتقاد الجازم بالقلب، والإقرار باللسان، وعمل الجوارح بالأركان.

(٢) إيمان ينجي من الخلود في النار ولا يمنع من دخولها مع الإخلال بشرط العمل بالجوارح.

والدليل عليه من الشرع ما ورد في صحيح السنة عن أبي ذر الغفاري أن رسول الله ﷺ قال:

(من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال أبو ذر وإن زنى وإن سرق، فرد عليه ﷺ وإن زنى وإن سرق.... الخ الحديث) وصاحب هذا النوع من الإيمان فاسق، لأن إيمانه لم يمنعه من إرتكاب الكبائر والوقوع في المعاصي والحديث يدل على أن العمل بالجوارح شرط كمال للإيمان لا شرط صحة، ولو كان شرط صحة للإيمان لحكمنا بكفر مرتكب المعصية كما هو مذهب الخوارج ويشهد لصحة مقالة أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويؤيد مذهب أهل السنة في هذه المسألة قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ٤٨ :النساء.

وقوله : ما دون ذلك أي: ما دون الشرك فيشمل الكبائر والصغار فهي داخلة تحت الغفران بمشيئة الله تعالى(١).

---

(١) فمذهب أهل السنة والجماعة يمثل وسطية الإسلام فلا هم يهملون قيمة العمل ويسقطونها كما هو مذهب المرجئة، ولا هم يحملون النصوص الشرعية فوق ما تحتمل، ويكفرون المسلمين بالمعاصي والتقصير في العمل كما هو مذهب الخوارج.

وآفة الخوارج وعلتهم عدم فهم النصوص الشرعية فهماً صحيحاً، وترك الجمع بين النصوص الشرعية المختلفة في الظاهر ليتضح المراد منها جميعاً، كما هو مذهب أهل السنة وجمهور علماء الإسلام.

ونموذج ذلك قول الرسول ﷺ:

(سباب المسلم فسوق وقتاله كفر). (متفق عليه. انظر شرح مشكاة المصابيح للطيبي حديث رقم (٤٨١٨) ٩/٩٨ -٩٩).

فهل إذا قاتل المسلمون بعضهم بعضاً يكفرون ويخرجون من ملة الإسلام كما هو مذهب الخوارج بدلالة ظاهر الحديث شيء آخر وهو ما يطلق عليه جمهور علماء المسلمين (كفر دون كفر) ، أي كفر بأخوة الإسلام المنصوص عليها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ : الحجرات والذي حمل جمهور العلماء على القول بذلك أن قوله ﷺ (وقتاله كفر) يتعارض ظاهراً مع قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ ٩ : الحجرات فقد أطلق الله اسم الإيمان على الطائفتين ومنهم المعتدي والمعتدى عليه.

وقد توسعت في هذه المسألة قليلاً لألفت بذلك نظر القارئ الكريم إلى أن فكر التكفير كثر في مجتمعاتنا الإسلامية، وألفت نظره أيضاً إلى أن أصحاب الفكر المنحرف يحاولون النيل أو اشتكيك في علماء الإسلام المعتبرين المعتدلين بعامة، وعلماء الأزهر بخاصة، لأن العلماء هم الذين يتوفر لديهم القدرة العلمية على كشف زيف ضلالات هذه الفرق التي تريد التأثير بالباطل على شباب المسلمين.

ولهم في ابن الأكوي الخارجي قدوة سيئة، فلما أرسل عليّ بن أبي طالب عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، والذي دعا له الرسول ﷺ : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) أرسل عليّ ليزيل شبه الخوارج، ويجالهم بالحق ليثبت لهم بطلان ما ذهبا إليه من فتنة تكفير المسلمين والخروج عليهم ، فلما رآه ابن الأكودي مقبلاً عليهم قال لإخوانه من الخوارج محذراً لهم من الاستماع لكلامه: (إن هذا وقومه هم الذين أنزل الله فيهم قوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ٥٨ : الزخرف.

فأصحاب الفكر المنحرف : من الخوارج ، وغلاة الشيعة، والعلمانيين... الخ إذا أرادوا نقل ضلالهم الفكري بين شباب المسلمين صبوا جام غضبهم على علماء الإسلام المعتدلين قديماً وحديثاً، ووضعوا لذلك عدة (أكلاشيهات) ، فإن كان العالم الذي يكشف ضلالهم وزيفهم من قدامى العلماء شككوا فيه بقولهم: (من علماء السلاطين) ، وإن كان العالم الذي يكشف انحرافهم من العلماء المحدثين قالوا عنه:

(من علماء السلطة، أو علماء دنيا، أو علماء سوء) وألفت نظر القارئ الكريم إلى أن أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم حاولوا اختراق الجماعات الدينية وغيرها في بلاد العالم الإسلامي ، وتوجيهها والسيطرة عليها ، ونشر الأفكار الهدامة المسمومة ومسائل الاختلاف لتمزيق وحدة المسلمين فكرياً واعتقادياً وفقهياً، وبذرك تتحقق النتيجة التي يريدها أعداء الإسلام ، وهي أمة ضعيفة مستكينة متفرقة ممزقة مختلفة لا يلتئم شملها.

**وفي هذا المقام يقول الجرجاني :**

الإيمان: في اللغة التصديق بالقلب وفي الشرع هو : الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان.

قيل: من شهد وعمل. ولم يعتقد فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل واعتقد ، فهو فاسق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر.

الإيمان على خمسة أوجه : إيمان مطبوع، وإيمان مقبول، وإيمان معصوم، وإيمان موقوف وإيمان مردود

فالإيمان المطبوع: هو إيمان الملائكة.

والإيمان المعصوم: إيمان الأنبياء.

والإيمان المقبول: إيمان المؤمنين.

الإيمان الموقوف: إيمان المبتدعين.

الإيمان المردود : هو إيمان المنافقين[1]

(١) التعريفات./٤٠

# وجود الله حق

الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى هو حق - واجب الوجود - أول واجب إيماني، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الحج : ٦٢.

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ النور : ٢٥ .

الحق: يقال : حققت الشيء أحقُه حقاً، إذا تيقنت كونه، ووجوده، وفلان محق، أي: صاحب حق، ومنه قولهم: شهدت بأن الجنة حق، والنار حق[١].

والحق : اسم من أسمائه تعالى، والشيء الحق أي الثابت حقيقة، ويستعمل في الصدق والصواب أيضاً يقال: قول حق وصواب.

والحق في اللغة: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره في اصطلاح أهل المعاني هو الحكم المطابق للواقع يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل[٢].

ومن هنا نعلم أن الحق هو ما وجب إثباته والاعتراف به ولا يمكن إنكاره والشك فيه لقوة ثبوته وقطعية حجته فوجود الله حق ثابت، مركوز على الفطر السليمة، واضح في العقول السوية يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف : ١٧٢.

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى / ٥٣.

(٢) التعريفات / ٨٩

الأخذ : مجاز في الإخراج والانتزاع.

وأخذ العهد على الذرية المخرجين من ظهور بني آدم يقتضي أخذ العهد على الذرية الذين في ظهر آدم بدلالة الفحوى . وقوله : ( من ظهورهم) بدل من (بني آدم) بدل بعض من كل، وقد أعيد حرف الجر مع البدل للتأكيد.

والذريات جمع ذرية والذرية اسم جمع لما يتولد من الإنسان وجمعه هنا للتنصيص على العموم.

والإشهاد على الأنفس يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستعير لحالة مغيبة تتضمن هذا الإقرار يعلمها الله لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرهم[1].

وخلاصة ما يرشد إليه هذا النص الإلهي الحكيم:

(وأذكر يا محمد للناس جميعاً ما أخذه الله على البشر كافة من ميثاق يتضمن الاعتراف على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إلا الله، وذلك حين أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم كما تثبت الآية، ومن آدم نفسه كما ثبت في الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة...) وقد وردت عدة روايات في هذه المسألة العلمية الهامة يقوي بعضها بعضاً، والمعنى: أي استخرج من بني آدم ذريتهم أو سلالتهم، وخلقهم على فطرة التوحيد والإسلام.

وأشهد كل واحد على نفسه من هؤلاء الذرية قائلاً لهم قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتبليغ: ألست بربكم؟ فقالوا بلسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة .وسبب هذا الإشهاد هو ألا يعتذروا يوم القيامة إذا أشركوا: إنا كنا عن

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٦/٩ ـ ١٩٦٧.

التوحيد غافلين، أي لم ينبهنا إليه أحد، فلا عذر لكم بعد إقامة الأدلة على: وحدانية الله، ووجود العقل، وتكوين الفطرة(١).

وقد تظاهرت الأدلة والبراهين على إثبات وجوده سبحانه فهو سبحانه (الحق المبين) أي الذي لا يخفى إثبات وجوده على أي عاقل خالٍ عن إتباع الهوى أو التقليد الأحمق لموروث الآباء والأجداد يقول تعالى:

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إبراهيم : ١٠

فكما أنه لا شك في وجود السموات والأرض المشهورتان بالأبصار، فإنه من باب أولى لا شك في وجود من أوجد السموات والأرض وهو الله تعالى.

(١) التفسير المنير ١٥٧/٩.

# أدلة القرآن على وجود الله

**أولاً : دلالة الفطرة:**

والفطرة هي الخِلْقة التي خلق الله الناس عليها ، وهي: الجبلّة المتهيئة لقبول الدين.

وقيل: هي ما ركب الله في الإنسان من قوته على معرفة الإيمان(١).

فقد خلق الله الإنسان وفي أعماقه شعور كامن بوجود الخالق سبحانه قال تعالى:

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ٣٠ : الروم.

وهذه الآية تفيد أن هذا الدين مختص بوصفين هما: التبرؤ من الإشراك، وموافقته الفطرة، فيفيد أنه دين سمح سهل لا عنت فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا ﴾ ١ - ٢ الكهف.

أي الدين الذي هو فطرة الله، لأن التوحيد هو الفطرة، والإشراك تبديل الفطرة(٢).

وكما قال النبي ﷺ في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد:

(إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم).

وفي حديث آخر رواه البخاري ومسلم:

(كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة جمعاء(٣) ، وهل تحسون فيها من جدعاء(٤)).

---

(١) انظر التعريفات / ١٦٨، والتوقيف / ٥٦٠.

(٢) التحرير والتنوير ٨٩/٢١.

(٣) مستوية كاملة لا نقص في شيء من بدنها.

(٤) جدعاء : مقطوعة الأذن أو الأنف.

وقد تعاند بعض النفوس البشرية، وتنكر الإيمان بوجود الله سبحانه، وتنحرف عن مُقتضى الفطرة الإيمانية بسبب عائق من العوائق.

**أبرز عوائق الإيمان بوجود الله ووحدانيته :**

**١- الجحود : والجحد إنكار ما سبق له وجود.**

والجَحْدُ: يقال فيما ينكر باللسان لا بالقلب.

وفي المصباح : الجحد : الإنكار.

وجَحَدَ حقه : أنكره، ولا يكون إلا على علم من الجاحد به.

فالجحود: معرفة الحق يقيناً، وإنكاره ظاهراً بسبب غرض من أغراض الدنيا كما فعل كثير من المشركين وأهل الكتاب بإنكارهم وحدانية الله، ورسالة خاتم المرسلين بسبب غرض من أغراض الدنيا قال الراغب: الجحود: نفي ما في القلب ثباته، أو إثبات ما في القلب نفيه(١).

**٢ - الترف والرخاء وفتنة المال:**

الترف: اراحة النفس، والتمتع بالنعمة، وسعة العيش(٢).

والترف : التنعم، يقال: ترف يترف من باب فرح وأترفته النعمة: أبطرته وأطغته واسم المفعول مترف.

والمترف: المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها وجمعه مترفون(٣).

وقد ظن كثير من الأغنياء - جهلاً منهم بحقيقة الإسلام - أن الإيمان بوجود الله ووحدانيته وإتباع منهجه يحرمهم متع الدنيا ونعيمها، فأعرضوا عن دين الله مع أن القرآن يقول:

---

(١) انظر التوقيف / ٢٣٢ ، المفردات للراغب.

(٢) التوقيف / ١٧٢.

(٣) معجم ألفاظ القرآن ١/ ١٥٩.

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ٧٧: القصص.

وعن عمرو بن العاص قال قال: رسول الله ﷺ (نعم المال الصالح للرجل الصالح[١]. فالرجل الصالح من علم الخير وعمل به، والمال الصالح ما يكسب من الحلال وينفق في وجوه الخيرات.

وهذا سعد بن أبي وقاص أراد أن يوصي بماله كله في سبيل الله فمنعه النبي ﷺ أن يفعل ذلك فورد في صحيح السنة عن سعد أنه قال: يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً وإنما يرثني ابنتي أفأوصي بمالي كله قال: لا قال فبالثلثين، قال: لا، قال: فبالنصف، قال: لا، قال: فالثلث، قال: الثلث والثلث كثير، إن صدقتك من مالك صدقة وإن نفقتك على عيالك صدقة، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صدقة، وإنك إن تدع أهلك بخيرٍ خير من أن تدعهم يتكففون من الناس[٢].

فالإيمان بالله لا يمنع أصحاب الجاه والسلطان والنفوذ من سلطانهم وأموالهم، وإنما الذي يمنعه الإسلام هو الفتنة بالجاه والسلطان والنفوذ والمال والنساء، وهذا أي الفتنة بهذه الأشياء ما وقع فيه المترفون، وقد حذرنا الرسول ﷺ من هذه الفتنة فقال: (لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي في المال والنسا) وعن حذيفة قلت (سمعت رسول الله ﷺ يقول (فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده ...الخ) الحديث[٣].

**٣- إتباع الهوى:**

هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً فهو هاو، وهي هاوية:

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة، وأحمد في مسنده بنحوه. وانظر شرح الطيبي على مشكاة المصابيح حديث (٣٧٥٦) ٢٤٢/٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث المجلد (١٢، ١١) ص ٩١.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، وانظر شرح مشكاة المصابيح رقم (٥٤٣٥) ٨٩/١٠.

فيقال: هوى سقط من علو إلى سفل.
ويقال: هوى تردى وهلك: تردى وهلك كأنما سقط من عالٍ.
ويقال: هوى إلى وطنه، نزع وحنّ.
وهويه يهواه هوى: أحبه ومال إليه.

وأكثر ما يستعمل الهوى في الميل إلى الباطل وما ليس بحق ويأتي الهوى في معنى الشهوات، وما تميل إليه النفس في المذهب والاعتقاد، ونحو ذلك مما يجانب الحق ويجافي الصواب ويستعبد النفوس[١] وفي الاصطلاح عبارة: ميلان النفس إلى ما يستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع[٢].

قال الراغب: الهوى: يقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمى بذلك لأنه يهوى بصحابه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية[٣].

**٤- إتباع الشهوات:**
شيئ الشيء وشهاه، - كرضيه ودعاه - يشهاه شهوة.
وشها يشهو: رغب فيه ونزعت نفسه إليه.
والشهوة قسمان: شهوة يختل بدونها البدن، وشهوة لا يختل بدونها البدن وجمع الشهوة شهوات، ويبدو أن القرآن استعمل الشهوة والشهوات في المواطن غير الممدوحة، واستعمل الفعل اشتهى في غير المذموم[٤].

**وفي الاصطلاح عبارة عن:**
-حركة النفس طلباً للمُلائم.
وقال بعضهم: نزع النفس إلى ما تريده.

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ٢/٨١٠، ٨٠٩.
(٢) التعريفات / ٢٥٧ - المفردات / ٧٩٧.
(٣) معجم ألفاظ القرآن ٢/٣٩، ٤٠.
(٤) معجم ألفاظ القرآن / ٢/٤٠.

وهي في الدنيا ضربان : صادقة وكاذبة:
فالصادقة :ما يختل البدن بدونه، كشهوة الطعام للجوع.
والكاذبة :ما لا يختل بدونه[١].
والخلاصة: أن الشهوة المذمومة هي نزوع النفس إلى ما تريده، بعيداً عن نقيضي الشرع.

**٥- التقليد الأحمق لموروث الآباء والأجداد:**

التقليد هو : اتباع الإنسان غيره فيما يقوله أو يفعله معتقداً حقّيته من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه .فهو عبارة عن قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل[٢].

وقد ذم القرآن التقليد الأحمق لموروث الآباء والأجداد في أفكارهم وعقائدهم البالية القاتلة، ومن ذلك قوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ١٧٠ -: البقرة.

**٦- استجابة الإنسان إلى إغواء الشيطان ونسيان عداوته:**

حذرنا القرآن من إغواء الشيطان، وإضلاله لبني آدم في العقيدة والأخلاق والسلوك، فهو يقعد للإنسان على الصراط المستقيم ليضله ويبعده عن الإستقامة التي تصل به إلى الجنة بإذن الله فهو يريد بني آدم من أصحاب السعير يقول تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ١٦: الأعراف.

وقد أمرنا القرآن باتخاذ الشيطان عدواً، وذلك لفرط عداوته لبني آدم، وعمله وذريته على إهلاكهم بالكفر والمعاصي يقول تعالى:

---

(١) التوقيف / ٤٤٠ ، والمفردات / ٣٩٥.
(٢) التعريفات / ٦٤ ، التوقيف / ١٩٩.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ : فاطر.

وقد بين القرآن أنه لا سلطان للشيطان على بني آدم إلا مجرد الوسوسة.

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ : إبراهيم.

والمراد بالسلطان، سلطان الحجة والبرهان والدليل أو سلطان الغلبة والقهر(١) ، فلا حجة ولا دليل للشيطان عند وسوسته للإنسان.

ولا إمكانية للشيطان على قهر الإنسان وغلبته بالقوة، اللهم إلا مجرد الوسوسة.

**٧-إتباع الضالين المضلين ، والانقياد الأحمق للكبراء أو السادة:**

العقل في الإسلام مناط بالتكريم والتكليف، ومن أراد دليلاً على هذا فلينظر إلى مادة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ و ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، و ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ ، و ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ﴾ في القرآن الحكيم ويحصي عددها ، فحينئذ يوقن أن القرآن كرم العقل ويحترم منطق العقلاء ويرفض بل ينهي عن الأعمال التي تبنى على الإتباع الغبي والانقياد الأحمق التي لا أساس لها من التأمل العميق والنظر الثاقب، والتفكر الباحث عن الحقيقة، لذلك حذر القرآن من إتباع الضالين المضلين يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المائدة : ٧٧.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ ٦٧ : الأحزاب.

ويقول تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ ٢٠ : طه.

ويقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ٩٩ : الشعراء.

ويقول تعالى : ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ٥١ : الكهف.

فهذه الآيات تشير إلى أن الضلال والإضلال قديم في تاريخ البشرية، ومن تتبع تاريخ الإنسانية عبر القرون وجد العجب العجاب فيرى من عبدوا النجوم والكواكب، والملائكة والأصنام والنار والشيطان والبقر، وزعم اليهود أن عزيراً ابن الله وزعم النصارى أن المسيح ابن الله وعبدوه، وأنكر كارل ماركس ولينين وجود الله، وهو ما يعرف بالماركسية أو الشيوعية أو الاشتراكية، فكان حال هؤلاء الذين جاؤوا بالمبادئ الهدامة كحال الدهريين القدماء الذين حكى القرآن مقالتهم في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ٢٤: الجاثية.

وزعم دارون أن الإنسان أصله قرد، وقد أثبت العلم الحديث فساد وبطلان هذه المقالة الزائفة، وترى العلمانية التي تدعو إلى أن يسود منطق العلوم التجريبية العالم أجمع، وأما مبادئ الدين فلا تحكم الحياة، فالدين عندهم علاقة خاصة بين الفرد وربه وترى مبادئ البعث الاشتراكي.

وأخيراً وليس آخراً ترى الدعوة إلى العولمة التي يريد دعاتها أن يحملوا العالم على ثقافة واحدة ومناهج واحدة: واقتصاد واحد ,وبذلك يتم القضاء تحت راية العولمة على ثقافة المسلمين ودينهم وهويتهم، ويذوبون في العالم.

ولعل من أكبر أسباب ضعف الأمة الإسلامية في عصورها المتأخرة أننا نرى من أبناء أمتنا من يقتنع بهذه الأفكار والمبادئ الهدامة، ويدعو المسلمين إلى التمسك بها، والعمل الدءوب لنشرها.

ويحذرنا القرآن من احتلال الشيطان، فهو ضال مضل، يقول تعالى:
﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ٦٢ :يسن.

والقرآن يشير إلى أن إضلال المضلين من الإنس والجن يكون عند غيبة عقول من تأثروا بهم واتبعوا أفكارهم وأقوالهم، ولذلك نلاحظ قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾

ويصور لنا القرآن هذا المشهد العظيم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ ٢٩ : فصلت

ويقول تعالى:

﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ٢٨ : الأعراف.

فعلى المسلم أن يحذر إتباع أهل الضلال قبل أن يندم ويتحسر على إتباعهم في الآخرة، ولا ينفعه الندم حينئذ يقول تعالى:

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ ٢٩ - ٢٨ : الفرقان.

ولتمام الفائدة نبين معنى الضلال حتى يحذر

الضَلَلُ : الماء الذي يجري تحت الصخرة أو تحت الشجرة، لا تصيبه الشمس، وضل الماء في اللبن: إذا غاب، وأصل الضلال: الغيبوبة، وضل الكافر: إذا غاب عن الحجة بعدوله عن الطريق المستقيم والمنهج، والضلال: النسيان: والضياع وأضله: جعله ضالاً(١).

والضلال : هو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

ويقال الضلال: لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جداً.

وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمداً كان أو سهواً، قليلاً كان أو كثيراً، صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار وإن كان بين الضلالين بون بعيد(٢).

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ١١٨/٢.

(٢) المفردات / ٤٤٠.

وقال الجرجاني: الضلال: هي فقدان ما يوصل إلى المطلوب، وقيل هي سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب(١).

**ثانياً: دلالة الكون:**

إن هذا الكون بكل ما فيه من مخلوقات شاهد على وجود خالقه العلي القدير، وذلك من وجهين: الخلق، والإتقان.

**أ) الخلق:**

خلق الشيء يخلقه خلقاً: أبدعه من غير أصل ولا احتذاء، وذلك لا يكون إلا لله عز وجل، فهو الذي أبدع الأشياء على غير مثال بعد أن لم تكن(٢).

فهو تكوين الأشياء وإيجادها بعد العدم، والبداهة تقضي بأن كل مخلوق لابد له من خالق كما أن كل مصنوع لابد له من صانع.

فأنظر إلى نفسك وما يحيط بك، فهل خلقت نفسك؟ أو خلقت السماء والأرض؟ إنك لا تستطيع أن تدعي ذلك ...ولا غيرك من البشر، أو سائر المخلوقات.

ومن البديهي أنها لا يمكن أن توجد نفسها، وأنه لابد من مُوجد لها، فلم يبق إلا الله الذي أوجدها، وأخبرنا بذلك في كتبه المنزلة وعلى لسان عباده المرسلين .قال تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ ٣٥ -٣٦: الطور.

والمعنى : بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر، فصلح لإرسال الرسول والدعوة إلى الحق والتلبس بعبوديته تعالى، فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف،

---

(١) التعريفات / ١٣٨.

(٢)معجم ألفاظ القرآن ١/ ٣٧٠ ، المفردات / ٢٢٤.

ولا يتوجه إليهم أمر ولا نهي ولا تتبع أعمالهم ثواباً ولا عقاباً لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم.

**وفي معنى الجملة أقوال أخر:**

فقيل: المراد أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق، فلا حاجة لهم إلى خالق يدير أمرهم.

وقيل: المراد أم خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات.
وقيل: المعنى أم خلقوا من غير علة ولا لغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون.
وقيل: المعنى أم خلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون.

وقوله: ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي لأنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يربهم ويدبر أمرهم بالأمر والنهي أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أرباباً آلهة ويجلوا أن يستعبدوا .. أن يستعبدوا ويكلفوا بتكليف العبودية بل هم قوم لا يوقنون(١).

وهذه الحقيقة عبر عنها الأعرابي الأميّ البسيط حين سئل عن وجود الله سبحانه، فقال: (البعرة تدل على البعير، وأثر القدم يدل على المسير فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج أفلا تدل على اللطيف الخبير).

**ب) وأما الإتقان:**

أتقن الشيء إتقاناً: أحكمه(٢).

والإتقان: معرفة الشيء بيقين(٣).

---

(١) الميزان ١٩/٢٠.
(٢) معجم ألفاظ القرآن مادة ( ت ق ن) ١/١٦٣.
(٣) التعريفات / ٩.

فكل ما في الكون آيات تدل على عظمة صانعها، وحكمة مقدرها، وتنظيم مبدعها، هذا الإبداع العجيب المتقن نجده في الكون من حولنا، وفي خلق الإنسان وتكوينه، وفي عالم الحيوان، وفي عالم النبات.

وكلما تقدم العلم وازدادت المعارف الكونية ازداد المؤمن إيماناً بالصانع الحكيم .قال تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ٨٨ : النمل.

أعلم أن الصنع يطلق على العمل المتقن في الخير أو الشر ووصف الله بـ(الذي أتقن كل شيء) تعميم قصد به التذييل أي ما هذا الصنع العجيب إلا مماثلاً لأمثاله من الصنائع الإلهية الدقيقة الصنع.

وهذا يقتضي أن تسيير الجبال نظام متقن، وأنه من نوع التكوين والخلق واستدامة النظام وليس من نوع الحزم والتفكيك(١).

وقال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ٥٠ :طه.
هذه حكاية جواب فرعون عن الكلام الذي أمر الله موسى وهارون بإبلاغه فرعون.

فأجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جرياً على قاعدة الإستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعها قياس، فإن فرعون من جملة الأشياء داخل في عموم ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ و(كل شيء) مفعول أول ل، (أعطى) و (لقه) مفعوله الثاني.

والخلق: مصدر بمعنى الإيجاد وجئ بفعل الإعطاء للتنبيه على أن الخلق والتكوين نعمة، فهو استدلال على الربوبية وتذكير بالنعمة معاً.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٥١.

ويجوز أن يكون الخلق بالمعنى الأخص ، وهو الخلق على شكل مخصوص فهو بمعنى الجعل - أي وهب كل شيء من الأشياء الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وهكذا[١].

أي الذي أعطى كل شيء من الموجودات شكله المختص به فكونت بذلك الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص من آثار ذلك الخلق.

والمعنى: تأمل وانظر هل أنت أعطيت الخلق أوْ لاَ فإذا تأمل علم أن الرب هو الذي أفاض الوجود والنعم على الموجودات كلّها ، فآمن به بعنوان هذه الصفة وتلك المعرفة الموصلة إلى الاعتقاد الحق.

و(ثم) للترتيب بمعنييه الزمني والرتبي ، أي خلق الأشياء ثم هدى إلى ما خلقهم لأجله ، وهداهمْ إلى الحق بعد أن خلقهم ، وأفاض عليهم النعم[٢].

والهداية إرادة الشيء الطريق الموصل إلى مطلوبه أو إيصاله إلى مطلوبه ، ويعود المعنيان في الحقيقة إلى معنى واحد وهو نوع من إيصال الشيء إلى مطلوبه إما بإيصاله إليه نفسه أو إلى طريقه الموصل إليه.

وظهر أيضاً أن المراد بالهداية الهداية العامة الشاملة لكل شيء ، فكل شيء جهز بما يربطه بشيء ويحركه نحوه فقد هدى إلى ذلك الشيء ، فكل شيء مهدي نحو كماله بما جهز به من تجهيز والله سبحانه هو الهادي فالجنين من الإنسان مثلاً وهو نطفة مصورة بصورته مجهز في نفسه بقوى وأعضاء تناسب من الأفعال والآثار ما ينتهي به إلى الإنسان الكامل في نفسه وبدنه فقد أعطيت النطفة الإنسانية بمالها من الاستعداد خلقها الذي

---

(١) صفوة البيان ١٨/٢.
(٢) التحير والتنوير ٢٣٢/١٦ ، ٢٣٣.

يخصها وهو الوجود الخاص بالإنسان ثم هديت وسيّرت بما جهزت به من القوى والأعضاء نحو مطلوبها وهو غاية الوجود الإنساني والكمال الأخير الذي يختص به هذا النوع.

وكذلك القول في جميع المخلوقات.

فقد تبين أن الكلام مشتمل على البرهان على كونه تعالى رب كل شيء لا رب غيره فإن الأشياء وإيجاده لها يستلزم ملكه لوجوداتها - لقيامها به - وملك تدبير أمرها[1].

وقد دعانا الله سبحانه إلى النظر والتفكر في صنع الله الذي أتقن كل شيء: يقول تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ٢٠ - ٢١: الذاريات.

﴿ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ دلائل للموحّدين الذين سلكوا الطريق السوي الموصل إلى اليقين وخصوا بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالنظر فيها، ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ ﴾ في نشأتها وأطوارها وسائر أحوالها آيات للمتبصرين[2].

**وقال سبحانه:**

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ ٦ - ١٦ النبأ.

**وقال تعالى:**

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝ ﴾ ٢٤ - ٣٢: عبس

---

(١) الميزان ١٤/ ١٦٦ ، صفة البيان ١٩/٢.

(٢) صفوة البيان ٢/ ٣٥٥.

وقول سبحانه:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ١٧ - ٢٠ : الغاشية.

وإليك هذه النماذج من العناية الحكيمة والإتقان العجيب في الأنفس والآفاق:

أما الأنفس:

فمثالها خلق الإنسان ، واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ١٥ - ١٢ : المؤمنون.

والسلالة: ما سُل من الشيء واستخرج منه: يقال: سللت الشيء من الشيء ، استخرته منه فانسل (من طين) متعلق بـ (سلالة) بمعنى مسلولة منه و(من) في الموضعين ابتدائية .والمراد: أن نوع الإنسان خلق مما ذكر، باعتبار خلق أصله منه وهو آدم عليه السلام، فيكون كل إنسان مخلوقاً من ذلك خلقاً إجمالياً من ضمن خلقه (ثم جعلناه نطفة) أي ثم خلقنا نوع الإنسان باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام من مني يُمنى.

(في قرار مكين) أي في مستقر متمكن وهو الرحم.

(علقة) أي دماً جامداً.

(مضغة) قطعة لحم بقدر ما يمضغ.

(ثم أنشأناه خلقاً آخر) مبايناً للخلق الأول بنفخ الروح فيه بعد هذه الأطوار التي كان فيها جماداً ، فصار إنساناً ذا قوىً وحواس.

(فتبارك الله) كثر خيره وإحسانه.

(أحسن الخالقين) أي أتقن الصانعين صنعاً)[1].

فهذه الآيات تلفت نظر الإنسان إلى كونه كان نطفة في الرحم، فصارت النطفة بقدرة الله وإبداعه علقة ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم لحماً وأعضاء وحواس، ثم يخرج بعد تلك الأطوار بشراً سوياً على أحسن خلقه.

**ب) أما الآفاق:**

فمثالها هذه الكواكب التي تراها في السماء تسير بسرعة مذهلة مقدرة، لا تنحرف مداراتها ولا تتخلف عن مواعيدها ولا تسقط على ضخامتها ولا تتصادم بعضها مع بعض. وقارن بينها وبين الكرة الحقيقة الضئيلة التي تنطلق في الفضاء لحظة، ثم لا تلبث أن تسقط على الأرض على خفتها وضالتها.

وقارن بينها وبين هؤلاء المشاة على الأرض الذين اصطدم بعضهم ببعض وهم أصحاب عقل وبصر. فمن الذي امسك هذه الكواكب فلا تقع، وسيرها فلا تصطدم؟

إنه الله وحده وصدق الله العظيم:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ ﴾ ٤١ :فاطر.

**وقال سبحانه:**

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ٤٠ ☐ ٣٨: يسن.

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ﴾ أي وآية لهم الشمس تسير مسرعة إلى مكان استقرارها كل يوم في رأي العين وهو أفق الغرب خاصة. أو إلى مكان استقرارها وهو الحد المعين الذي تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة، فهي تجري دائماً، كلما انتهت من

(١) صفوة البيان ٦٢/٢.

دورة استأنفت أخرى لتبغه . شُبِّه بمستقر المسافر إذا قطع سيره، من حيث إن في كل منها انتهاء إلى موضع معين، وإن كان للمسافر قرار بعد ذلك والشمس لا قرار لها بعده، بل تستأنف الحركة منه كما بدأت ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ أي قدرنا سيره في منازل، على تقدير مستوٍ من ليلة المنهل إلى الثمانية والعشرين ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر تماماً، وليلة إن نقص يوماً، فإذا كان في آخر منازله دقّ ونقوّس (حتى عاد) أي صار في رأي العين.

﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ أي العتيق اليابس وهو عود العذق ما بين الشماريخ إلى منبته من النخلة. والعِذق: القِنو من النخل وهو العنقود من العنب والشماريخ : جمع شمراخ وشمروخ وهو العثكال الذي عليه البُسر .وشمس عُرجونا من الإنعراج وهو الانعطاف، شبه القمر به في دقته وتقوسه واصفراره.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾

أي لا يصح لها أن تدرك القمر في مسيرة فتجتمع معه في الليل، لأنه تعالى حدد لكل منها وقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه، فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، بل يتعاقبان، وإلا لاختلّ تكوُّن النبات وتدبير عيش الإنسان والحيوان.

﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي ولا آية الليل - وهي القمر - يسبق آية النهار -وهي الشمس- ، بحيث يظهر سلطانه في وقت ظهور سلطانها.

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يدورون[1].

وقد ذكر الله تعالى دلالتي الآفاق والأنفس في قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ٥٣ :فصلت.

---

(١) صفوة البيان ٢/٢١٩.

سنريهم آيات وحدانيتنا وقدرتنا في أقطار السموات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق والصواعق، والنبات والأشجار، والجبال والبحار وغيرها.

(وفي أنفسهم) بما أودعنا فيهم من الحواس والقُوى والعقل والروح، وبما نصيبهم به من البلايا والمِحَن، وما تجريه عليهم من النعم(١).

(١) صفوة البيان ٢/٣٥٥.

# المبحث الرابع

## الرسالة الإلهية

ويشتمل على :

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان .
تعريف الرسل .
مهمة الرسل.
أصول الرسالات الإلهية واحدة.

# الرسالة الإلهية

الرسل هم صفوة الخلق، وهداة البشر إلى الحق والواسطة بين الله وعباده في تبليغ رسالاته ودينه.

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان:
الإيمان بالرسل جميعاً دون تفريق بينهم ركن من أركان الإيمان :
يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ٢٨٥ : البقرة.
(آمن الرسل بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون...).

تصديق لإيمان الرسل والمؤمنين ، وإنما أفرد رسول الله عنهم بالإيمان بما أنزل إليه من ربه ثم ألحقهم به تشريفاً له.

(والمؤمنون) هنا لقب للذين استجابوا لرسول الله ﷺ.
(كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله...).

تفصيل للإجمال الذي تدل عليه الجملة السابقة ، فإن ما أنزل إلى رسول الله يدعو إلى الإيمان وتصديق الكتب والرسل والملائكة الذين هم عباد مكرمون، فمن آمن بما أنظل على رسول الله ﷺ فقد آمن بجميع ذلك.

(لا نفرق بين أحد من رسله...) حكاية لقوتهم دون توسيط لفظ القول.

والتفريق هنا أريد به التفريق في الإيمان به. ومعناه : أن يصدق ببعض ويكفر ببعض، وهو ما نفاه القرآن عنهم.

والإيمان بالملائكة: هو التصديق بوجودهم، وبأنهم معصومون مطهرون، وبسائر صفاتهم التي جاء بها التنزيل[١].

وإيمّا إنسان فرق بينهم في الإيمان، فآن ببعض الرسل، ولم يؤمن بالبعض الآخر، فقد كفر كفراً صريحاً.

وقد اصطلح العلماء على أن الكفر: تغطية ما حقه الإظهار وهو إنكار الوحدانية أو النبوة أو الشريعة[٢] فمن أنكر وحدانية الله عز وجل أو أنكر الوحي والنبوة أو نبوة بعض الأنبياء فهو كافر، من أنكر الشريعة أو بعض أحكامها مما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ١٥٠ -١٥١ : النساء.

ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد.

وفي النصارى الذين آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، تفريقاً بين الله ورسله، والله سبحانه قد أمرهم بالإيمان بجميع رسله[٣].

---

(١) انظر الميزان ١٤٤/٢ التحرير والتنوير ١٢٢/٢ صفوة البيان ٩٤/١.
(٢) انظر التوقيف /٦٠٦.
(٣) صفوة البيان ١/ ١٧٦.

# تعريف الرسول

الرسول لغة: من يبلغ أخبار من بعثه لمقصود سمي به النبي المرسل، لتتابع الوحي عليه، إذ هو(فعول) بمعنى (مفعول).

فالرسول رجل اصطفاه الله، وبعثه إلى الخلق لتبليغ الأحكام[١].
فيؤخذ من هذا التعريف أن الرسول:
رجل اصطفاه الله من البشر، واختصه بالوحي وأمره بتبليغه.

**(١) الرسول بشر:**
أرسل الله سبحانه صلوات الله وسلامه عليهم إلى الناس بشراً من جنسهم.
قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ١١٠ :الكهف.

وبشرية الرسول ليكون أقدر على التفاهم والتخاطب مع قومه وتبليغ رسالة الله إليهم منهم وإعلامهم بأن الرسول لم يبعث للإخبار عن الحوادث الماضية والقرون الخالية، ولا أن من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء فيتصدى للإجابة عن أسئلة تُلقى إليه، ولكنه بشر علمه كعلم البشر أوحي الله إليه بما شاء إبلاغه عبادة من التوحيد والشريعة، ولا علم له إلا ما علمه ربه.

ومعنى الحصر في الآية: قصر الموصوف على الصفة، أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالمغيبات يوحي الله اليّ توحيد الإله وانحصار وصفه في صفة الوحدانية دون المشاركة[٢].

---

(١) أنظر التوقيف / ٣٦٤. والتعريفات / ١١٠.
(٢) التحرير والتنوير ٥٥/١٦

والرسل تجري عليهم الأعراض البشرية التي لا تنقص من مراتبهم العليّا، فهم يأكلون ويشربون، وينامون ويمرضون الأفعال العادية التي لا تنفر الناس منهم، ولا تحول بينهم وبين رسالة الله إلى الخلق وهو الهدف الأساسي من إرسالهم، ورؤية الناس للرسل على هذه الحالة من الأعراض البشرية ينبغي أن تحول بين الناس وبين فتنتهم بعباد الله المرسلين، كما فتن النصارى بعيسى فزعموا بنوته لله عز وجل كذباً وزوراً وبهتاناً عظيماً يقول تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ ٢٠ الفرقان.

فقد توسل المشركون لإبطال رسالته ﷺ بثبوت صفات البشر له، فكان الرد عليهم بأن جميع الرسل كانوا متصفين بصفات البشر(١).

والحكمة في بشريتهم: ليكون الناس أقدر على الفهم عنهم، والإنس بهم، والإقتداء بسلوكهم ولو كان الرسل إلى البشر من الملائكة لامتنع الناس عن إتباعهم والإقتداء بهم، وعللوا ذلك الامتناع بقولهم مثلاً: لسنا ملائكة حتى نعمل كل هذه الأعمال، ولو كانوا ملائكة لكان الإيمان بهم إيماناً إجبارياً خوفاً منهم، ولا إيماناً اختيارياً كما هو الشأن عند إرسال الرسل من البشر .ولو أرسل الله رسولاً من الملائكة لتشكل في صورة رجل من البشر، وحينئذ يلبس على الناس الأمر هو من البشر أم من الملائكة

واللبس: خلط يعرض في الصفات والمعاني بحيث يعسر تمييز بعضها عن بعض.
يقول تعالى:
﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾ ٩ :الأنعام.

(١) انظر التحرير والتنوير ٣٤٣/١٨.

والمعنى: وللبسنا على عقولهم، فشكوا في كونه ملكاً فكذبوه، إذ كان دأب عقولهم تطلّب خوارق العادات استدلالاً بها على الصدق، وترك إعمال النظر الذي لا يعرف به صدق الصادق[1].

(٢) الرسول رجل

لم تجر سنة الله في خلقه أن يرسل إلى الناس امرأة.

أ - لأن الرسالة عبء ثقيل يعرض صاحبه للأذى والاضطهاد، مما لا تحتمله - في العادة - المرأة التي ميزها الله تعالى بالعاطفية والحنان واختصها برعاية الزوج وتربية النشأ البشري.

ب - ولأن الرسالة قيادة، ولها تبعات ثقيلة تصل إلى حد المواجهة بين النبي وبين قومه، كالمواجهة التي حدثت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين قومه حتى ألقوه في النار، وكالمواجهة بالجهاد في سبيل الله وهزم فيها داود جالوت ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ ٢٥١ :البقرة.

وكالمواجهات التي حدثت بين النبي ﷺ وبين قومه، وجاء تفصيلها في غزوات الرسول - عليه الصلاة والسلام -المختلفة، فمن هنا نعلم وندرك أن النبوة والرسالة قيادة صعبة لها متطلبات بالغة الشدة لا يمكن أن تتحمل أعباءها المرأة.

وللمرأة طبيعة خاصة من الحمل والولادة والرضاعة والحيض والنفاس، الأمر الذي تبين من خلاله أنه ليس من المناسب أن تقود المرأة الرجال.

يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ الأنبياء : ٧

قوله: ﴿ إِلَّا رِجَالاً ﴾ يقتضي أن ليس في النساء رسلاً وهذا مجمع عليه[1].

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٦/٧.

**(٢) الرسالة اصطفاء.**

الرسالة منحة إلهية يختص الله بها من يشاء من عباده فضلاً منه ونعمة.

وليست الرسالة درجة علمية أو منزلة يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبد أو التعلم ..وإنما هي اصطفاء واختيار للرسل من بين سائر الناس .قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ٥٧ :الحج.

وأصل الصفا: الخلوص من الشوب، وأصفاه بكذا: آثره به وخصه، واصطفى: اختار والصفوة من كل شيء: خالص[٢].

واصطفاه الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوائب الموجودة في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعر ذلك من الأول[٣] وتقديم المسند إليه وهو اسم الجلالة على الخبر الفعلي في قوله ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾ دون أن يقول:

نصطفي، لإفادة الاختصاص، أي الله وحده هو الذي يصطفي لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه.

وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾ لأن المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختص بالاصطفاء وليس لأهل العقول ما بلغت بهم عقولهم من الفطنة والاختيار وأن يطلعوا على خفايا الأمور فيصطفوه للمقامات العليا من قد تخفي عنهم نقائصهم به اصطفاء الحجارة الصماء[٤].

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ١٨.
(٢) معجم ألفاظ القرآن ٢/ ٧٧.
(٣) المفردات / ٤١٨.
(٤) التحرير والتنوير ١٧/ ٣٤٤.

**(٤) الرسول يوحى إليه**

الوحي: وَحَى يحي وَحْياً .

وأصل الوحي: الإعلام الخفي.

يقال: وحي الله كذا إلى أحد عباده: قذفه في قلبه وألهمه إياه، ويكون ذلك في اليقظة أو في المنام في الرؤيا.

ويقال: وحي الله كذا إلى من يصطفيه من عباده: ألقاه إليه وبلّغه إياه على لسان بعض ملائكته ويقال: أوحي الله إلى من يصطفيه من عباده أمراً: ألقاه إليه وبلغه إيّاه، وهذا الوحي يكون للملائكة، وللرسل من البشر يكون بوساطة الملك وقد يكون بغير وسيط كأن يقع بالإلهام أو بالرؤيا أو أن يسمع كلاماً من غير حرف ولا صوت، وقد يكون لغير الرسل من البشر بوساطة رسول منهم .والوحي يطلق على الموحَى به، وهو من إطلاق المصدى على المفعول[1].

والوحي : إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ولا يجوز أن تطلق الصفة بالوحي إلا لنبي ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي.

وذلك إما برسول شاهد تُرى ذاته ويسمع كلمه لتبليغ جبريل في صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلامه تعالى ، وإما بإلقاء في الروع لحديث: (إن جبريل نفث في روعي....) وإما بإلهام نحو : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ القصص.

وإما بتسخير نحو :﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ ٦٨ : النحل .وإما بمقام كما دل عليه حديث: (انقطع الوحي وبقيت المبشرات: رؤيا المؤمن[2].

إن أخص ما يميز الرسول عن سائر البشر : أنه يوحى إليه من الله عز وجل.

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ٨٣١/٣.

(٢) التوقيف / ٧٢٢ ، والحديث رواه أحمد في مسنده ٢١٩/١، ٢٦٧/٣.

فالرسول لا يصدر فيما يبلغه إلى الناس عن نفسه ورأيه وإنما يتلقى ذلك بوحي من الله عز وجل، قال تعالى مخاطباً رسول الله ﷺ:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الكهف : ١١٠.

ويقول تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم : ٤

ويقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ الحاقة : ٤٤ -٤٧.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ ﴾ افتري القول، والأقاويل : الأقوال أي لو نسب إلينا قولاً لم نقله، أو لم نأذن له في قوله.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ اي لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه، وهو كناية عن إذلاله وإهانته، أو لأخذناه بالقوة والقدرة، وعبر عنها باليمين لأن قوة كل شيء في.....

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ ثم لقطعنا بضرب عنقه وتينه، وهو النخاع المعروف، أو نياط القلب الذي إذا انقطع مات صاحبه، وهو كناية عن الإهلاك بأفظع ما يفعله الملوك بمن يعاقبونه(١).

**(٥) الرسول مأمور بالتبليغ**

الرسول يبلغ كل ما أوحاه الله تعالى إليه، ولو كان عتاباً لشخصه، شاقاً ثقيلاً على نفسه أو غيره ويستحيل عليه أن يكتم شيئاً مما أمره الله بتبليغه يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة : ٦٧.

---

(١) صفوة البيان ٢/ ٤٦٠.

خاطبه صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة لكونها أنسب الصفات إلى ما تتضمنه الآية من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل، فهو كالبرهان على وجوب التبليغ .والتبليغ جعل الشيء بالغاً . والبلوغ الوصول إلى المكان المطلوب وصوله، وهو هنا مجاز في حكاية الرسالة للمرسل بها إليه من قولهم: بلغ الخبر، وبلغت الحاجة.

والأمر بالتبليغ مستعمل في طلب الدوام .ولما كان نزول الشريعة مقصوداً به عمل الأمة بها، كان معنى الرسالة إبلاغ ما أنزل إلى من يراد علمه به وهو الأمة كلها، أي بلغ ما أنزل إليك جميع من يحتاج إلى معرفته، وهو جميع الأمة وقوله (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) جاء الشرط بإنْ التي شأنها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط .لأن عدم التبليغ غير مظنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وإنما فُرض هذا الشرط ليبنى عليه الجواب وهو قوله (فما بلغت رسالته) ليستفيق الذين يرجون أن يسكت رسول الله عن قراءة القرآن النازل بفضائحهم من اليهود والنصارى، وليبكّت من علم الله أنهم سيفترون فيزعمون أن قرآناً كثيراً لم يبلّغه رسول الله الأمة.

(والله يعصمك من الناس) افتتح باسم الجلالة للاهتمام به لأن المخاطب والسامعين يترقبون عقب الأمر بتبليغ كل ما أنزل إليه، أن يلاقي عنتاً وتكالباً عليه من أعدائه فافتتح تطمينه بذكر اسم الله لأن المعنى أن هذا ما عليك، فأما ما علينا فالله يعصمك والعصمة بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجه إلى نفس النبي الشريفة أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه وفلاح سعيه[1].

وهذه الآية ضمان من الله يحفظ حياة النبي ﷺ إلى أن يبلغ رسالة الله إلى الناس، وهي أمارة ودليل على صدق النبي في نبوته، فقد وردت الروايات التي تفيد أن (الصحابة كانوا يتناوبون على حراسة النبي ﷺ، فلما نزلت هذه الآية أمر الصحابة بالانصراف وعدم حراسته بعد ذلك لأن الله عصم دمه، فلو كان كاذباً في أدعاء النبوة ما طرد حراسه لأنه

(١) انظر التحرير والتنوير ٦/٢٥٨ -٢٦٢، والميزان ٦/٤٩ -٥٠.

يترتب عليه تعريض حياته لمخاطر الأعداء، فطرده لحراسه دليل صدق نبوته ﷺ، وفي هذا المقام أعني الأمر بتبليغ الرسالة للأمة يخاطب الله نبيه قائلاً سبحانه : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ٩٤: الحجر.

ويقول تعالى:
﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ٣٩الأحزاب.

**مهمة الرسل**

تتلخص مهمة الرسل عليهم السلام في كلمة واحدة وهي: هداية الخلق إلى طريق الحق سبحانه، وتتحقق هداية الرسل للناس بالأمور الآتية :

**(١) تعريف الناس بالله :**

فهم يعرفونهم بالله وصفاته، وما يتصف به سبحانه من صفات الجلال والكمال والجمال، وما يتنزه عن الوصف به، وبيان حقه على عباده أن يوحدوه ويعبدوه وحده لا شريك له.

يقول تعالى :
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ٢١ : البقرة.

**(٢) التعريف بعالم الغيب :**

**تعريف الغيب :**

غاب الشيء: استتر عن العين حساً.

والغيب في المعنى: ما غاب عن علم الإنسان ويذكر الغيب في القرآن باعتبار ما غاب عن الناس أما الله فهو عالم الغيب والشهادة().

وقيل الغيب : هو الخفي الذي لايكون محسوساً، ولا في قوة المحسوسات كالمعلومات ببديهة العقل.

وقيل : الغيب هو ما لم يقم عليه دليل، ولم ينصب له أمارة، وهو على قسمين :
قسم نصب عليه دليل فيمكن معرفته كذات الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأحوال الآخرة إلى غير ذلك مما يجب على العبد معرفته وكلف به وهو غائب عنه لا يشاهده ولا يعاينه ولكن يمكن معرفته بالنظر الصحيح في أدلة الشرع.

وقسم لا دليل عليه فلا يمكن للبشر معرفته كما قال الله تعالى:
﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ ٥٩ :الأنعام.
والغيب المطلق: كوقت قيام الساعة وهو لا يكون للخلق إلا بإخبار الله تعالى.

والغيب الإضافي: كنزول مطر في مكة فيحق من كان غائباً عن مكة، ولا طريق لمعرفته إلا الإلهام كإلهام الله الفاروق عمر حينما كان يخطب الجمعة بالمدينة وكان قد أرسل جيشاً يجاهد في سبيل الله ، فتحول عمر عن خطبة الجمعة قائلاً (يا سارية بن حصن الجبل، فسمعها سارية فارتفع على الجبل فتمكن وجيشه من هزيمة العدو).

والرسول من البشر يتلقى الغيب من الملك بالذات، والولي لا يتلقى بالذات، بل بواسطة تصديقه بالنبي[1].

**والخلاصة : الغيب ثلاثة أقسام:**

(١) الغيب الماضي : كبدء الخلق وهو ما حدث ووقع للأنبياء السابقين والأمم الماضية الغابرة.

(٢) الغيب الحاضر: وهو ما يحدث ويقع في غير المكان الذي أنا فيه، فهو غيب بالنسبة لي، وإن لم يكن غيباً بالنسبة لغيري ممن حضره وشاهده:

---

(١) انظر الكليان /٦٦٧.

(٣) الغيب المستقبل وهو ما يحدث ويقع في المستقبل ولا يعلمه إلا الله أو النبي بتعليم الله له بقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ ٢٦ -٢٧: الجن.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يظهره على ما شاء من غيبه، ليكون إخباره عنه معجزة له دالة على صدقه، وليخبر الناس بما يتعلق منه برسالته وشئون الآخرة من البعث والحساب والجزاء والخلود فإذا أراد سبحانه إظهاره عليه يسلك من جميع جوانبه إظهاره عليه، لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول، وليحفظوه من وساوس الجن وتخاليطهم حتى يبلغ رسالة ربه إلى الناس[1].

**تعريف الرسل الناس بعالم الغيب:**

الغيب كما سبق تعريفه ما غاب عن الحس مما لا يعرفه إلا عن طريق الخبر الصادق الذي مصدره الوحي الإلهي.

ومن الغيب: عالم الملائكة، وعالم الجن وما يقع بعد الموت من فتنة القبر وسؤال الملائكة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، والإيمان بوجود الجنة وما أعده الله فيها لعباده المؤمنين، والإيمان بوجود النار وما أعده الله فيها للكفار والمشركين والمجرمين والعصاة والإيمان بالميزان والصراط المنصوب على ظهر جهنم.

ولا يمكن التعرف على الغيب إلا عن طريق عباد الله المرسلين فهم الذين يتلقون علم الغيب عن الوحي الإلهي يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ١٧٩ : آل عمران.

---

(١) صفوة البيان / ٤٧٥.

وإنما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ لأنه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسساً على استفادة المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها ولم يكن من شأن الله إطلاعكم على الغيب، فلذلك جعل أسباباً من شأنها أن تستفز أعداءكم فيُظهروا لكم العدواة فتطلعوا عليهم، كعداوة الكفار والمشركين والمنافقين.

ولم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب، وإنما خلق الإنسان وقدر لهأن يصل إلى مراده بعمله الكسبي الذي ترشده إليه الفطرة ويهدي إليه الدين[1].

﴿ مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فيطلعه على بعض غيبه، ومنذلك نفاق المنافقين إخلاص المؤمنين من الإجتباء بمعنى الاختيار، واجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهي ، يحصل له منه أنواع من النعم بلا كسب منه[2].

**(٢) تبليغ الأحكام الإلهية:**

من رحمة الله بعباده أن شرع لهم أحكاماً، رتّب على إتباعها والعمل بها صلاح حياة الناس في الدنيا وسادتهم في الدنيا والآخرة، وتحفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ودينهم، وقد جعل الله تبليغ هذه الأحكام والشرائع الإلهية من صميم مهمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهم الذين يبينون للناس الحلال من الحرام، والطيب والخبيث والحسن من الأشياء والقبيح، وذلك حتى لا يكون الناس ضحية لعقولهم وأهوائهم، وذلك لأن الأحكام الإلهية والشرائع الربانية تعود مصلحة العمل بها على الناس كافة ولا يعود من ذلك شيء على الله، فهو سبحانه شرعها لمصلحة عباده، فإن أعرضوا عنها فسدت حياتهم وضلوا عن سواء السبيل، وقد بلغ الرسل هذه الشرائع وبينوها أكمل بيان بقوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ٤٤ : النحل.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٤/١٧٩ . التفسير المنير ٤/ ١٧٩

(٢) صفوة البيان ١ /١٣٤

فالرسول مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغيرها من أنظمة الحياة مما لم يفصله القرآن[١].

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من الأحكام والشرائع وأحوال القرون الماضية، وأسرار القرآن وعلومه بياناً شافياً وافياً، فكانت السنن مفسرة للقرآن[٢].

٤ - الأسوة الحسنة:

إن من مهمة الرسل عليهم السلام الأسوة الحسنة وإن شئت فقل تحويل الدعوة إلى الله سلوك عملي وذلك بتطبيق ما جاء به الدين من مكارم الأخلاق والأحكام والشرائع إلى سلوك عملي في حياة النبي ويرشد الله رسوله الخاتم إلى هذه المسألة الهامة يقول تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ ٩٠: الأنعام.

﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أي بطريقهم من الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين اقتد[٣].

وجهادهم وصبرهم على أذى أقوامهم في سبيل تبليغ شرائع الله.

ويوجه الله أنظار الأمة الإسلامية إلى هذه القضية الأسوة الحسنة في حياة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم يقول سبحانه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ٢١ : الأحزاب.

وبعد هذا العرض لما سبق بيانه يمكننا القول بأن هذه أهم المهمات التي يقوم بها الرسل في سبيل هداية الناس إلى الحق والخير، وتحذيرهم من الكفر والفسوق والعصيان والشر، وما وراء هذه المهمات ليس من أعمالهم عليهم السلام.

---

(١) التفسير المنير ١٤٨/١٤.
(٢) صفوة البيان ٤٣٥/١.
(٣) صفوة البيان ٢٣١/١.

**(١) التحكم سنن الكون.**

ليس من وظائف الرسل التحكم والتصرف في أمور الكون وتغيير سننه وقوانينه، إلا ما أيدهم الله به من معجزات لإثبات الرسالة.

فمن المعلوم أن المعجزة أمر خارق للعادة، يدعو للخير والسعادة (وهو الإيمان بالله وتصديق الرسل) مقرون بدعوى النبوة قصد به إظهار صدق من ادّعى أنه رسول الله[١].

يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ٣٨ : الرعد

- تركيب (ما كان) يدل على المبالغة في النفي.

والمعنى: أن شأنك شأن من سبق من الرل لا يأتون من الآيات إلا بما آتاهم الله - أي أيدهم بالمعجزات الخارقة للعادة والتي يتم فيها تغيير بعض السنن الكونية لإثبات رسالة النبي، كمنع إحراق النار معجزة لإبراهيم، وإحياء الموتى بإذن الله معجزة لعيسى.

وإذن الله: هو إذن التكوين للآيات وإعلام الرسول بأن ستكون آية[٢].

وليس من وظيفة الرسل عليهم السلام معرفة الغيب لأن علم الغيب من خصائص الله عز وجل، وأما الرسل فلا يعلم من الغيب إلا بالقدر الذي يأذن الله له بمله يقول تعالى:

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ٢٦ : الجن.

**(٢) تحقيق الهداية في قلوب الناس:**

ليس من مهمة الرسل إكراه أحد على الإيمان بالله وتحقيق الهداية في قلوبهم، لأن خلق الهداية في قلوب العباد من خصائص الله عز وجل، ومن المعلوم أن الهداية الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[٣].

---

(١) التعريفات / ٢١٩

(٢) التحرير والنوير ١٣/١٦٣.

(٣) التعريفات / ٢٥٦.

فالدلالة بلطف على طريق الله وظيفة الأنبياء الربانيين، أما الإعانة على الهداية وتحقيقها في قلب العبد فملك لله جل ذكره. يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: (وليس عليك عداهم ولكن الله يهدي من يشاء) ٢٧٢ :البقرة.

(ليس عليك هداهم) الخطاب للرسول ﷺ والمراد هو وأمته.

وقد كان لبعض الأنصار قرابة من اليهود، فلما أسلموا كرهوا أن يتصدقوا عليهم وراودوهم أن يسلموا فنزلت الآية.

أي ليس عليك هدى هؤلاء الكافرين فتمنعم الصدقة، ولا تعطيهم منها ليدخلوا في الإسلام ولكن الله تعالى هة الذي يهدي من يشاء إلى الإسلام فيوفقه له، فتصدق عليهم لوجه الله تعالى والمراد صدقة التطوع، للإجماع على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى غير السلم(١).

(١) صفوة البيان ١/ ٩٠.

# أصول الرسالات الإلهية واحدة

تتابعت رسالات الله إلى الأمم في مختلف الأمصار، وعبر الأعصار ، ومع اختلاف المكان وتباعده وطول الفترة الزمنية في مجئ الرسل وتعاقب الرسالات فإن أصول هذه الرسالات واحدة يصدق بعضها بعضاً ، ويشهد بعضها لبعض الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على وحدة مصدر هذه الرسالات الإلهية وصدق عباد الله المرسلين[١].

يقول تعالى: (شرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)١٣ : الشورى.

الخطاب لأمته ﷺ .أي سنّ لم من الشريعة ما وصى به أرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء وأمرهم أمراً مؤكداً ، وهو: (أن أقيموا الدين) أي توحيد الله والإيمان به. وطاعة سله فيما جاءوا به من الشرائع.

والمراد بإقامته: قبوله والعمل به.

(ولا تفرقوا فيه) : أي لا تختلفوا في الدين، أي في هذه الأصول التي أجمعت عليها الشرائع الإلهية[٢]. وهذا المعنى (وحدة الرسالات الإلهية) وكونها تصدر من مشكاة واحدة بينه النبي ﷺ بقوله (الأنبياء أبناء علات[٣] دينهم واحد وأمهاتهم شتى) وبقوله صلى الله عليه وسل: ( نحن معاشر الأنبياء ديننا واحد).

وكل الرسالات الإلهية تقوم على الدعوة إلى الأصول الآتية:

---

(١) ألف الإمام الشوكاني رسالة ممتعة في هذا الموضوع : (اتفاق الشرائع في التوحيد والمعاد والنبوات).

(٢) صفوة البيان ٢/٢٨٦.

(٣) العلّة : الضرّة ، وبنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى، المعجم الوسيط ٢/٦٣٠.

(١) الإيمان بالله وحده ، وما يجب له سبحانه من الإنصاف بكل كمال، والتنزه عن كل نقص.

وهو أعظم الأصول، إذ هو الأساس الذي يترتب عليه سائر الأركان يقول تعالى:
(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)٢٥ :الأنبياء.
أى لم ترسل رسولا سابقاً من عهد آدم عليه السلام إلى قومه إلا أوحينا إليه ألا معبود إلا الله، فاعبدوه مخلصين له العبادة، وخصوه بالإلوهية فرسالات جميع الأنبياء قائمة على التوحيد، وكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

**والخلاصة:**
لا دليل للمشركين على ما زعموا ، فلا برهان لهم، وحجتهم داحضة، لأن الفطرة تشهد بتوحيد الله، وكذلك العقل السليم، ورسالات جميع الأنبياء متحدة في دفع الشرك وإقرار التوحيد[1].

(٢) الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار :الإيمان باليوم الآخر أصل الإيمان دعت إليه جميع الشرائع الإلهية، وهو ميزان العدالة الربانية ولو لا الجزاء على الأعمال في الدار الآخرة لا مستوى المؤمن التقى الذي جاهد نفسه في اتباع شرائع الله والاقتداء بعباد الله المرسلين بالكافر والفاسق والمجرم العاصي الذين تمردوا على الإيمان بوحدانية الله، وتمردوا على منهج الله وشرائعه:
(أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون)٣٦ ، ٣٥: القلم
والإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بجميع الرسل والرسالات الإلهية ، كما يستلزم الإيمان ببقية أركان الشرائع الإلهية لأننا لم نعرفها إلا عن طريق الرسل عليهم السلام.

---

(١) التفسير المنير ٣٦/١٧.

(٣) العمل الصالح والأخلاق الفاضلة :أصل من الأصول الثابتة في جميع الشرائع دعا اليه أنبياء الله ورسله ، وهو أثر لازم للإيمان بالله واليوم الآخر ، وثمرة طبيعية له فإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر.

وقد جاءت عبارات العلماء في تعريف العمل الصالح بانه: هو العمل المراعي من الخلل وأصله: الإخلاص في النية وبلوغ الوسع في المحاولة بحسب عمل العامل وأحكامه(١).

يقول تعالى: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ ١٠ فاطر.

والمقصود أن أعمال المؤمنين هي التي تنفع ليعلم الناس أن اعمال المشركين سعي باطل، والغريات كلها ترجع إلى أقوال وأعمال ، فالأقوال ما كان ثناء على الله تعالى واستغفار ودعاء، ودعاء الناس إلى الأعمال الصالحة، والأعمال فيها قربات كثيرة أما قوله﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾و ﴿العمل﴾ مقابل ﴿الكلم﴾ اي الأفعال التي ليست من الكلام والصعود: الأذهاب في مكان عال ، والرفع: نقل الشيء من مكان إلى مكان إعلى منه ، فالصعود مستعار للبلوغ آلى عظيم القدر وهو كناية عن القبول لديه[١].

ويبين سبحانه الجزاء الكبير والفوز العظيم للذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح في حياتهم الدنيا ، وما أعده الله لهم من النعيم المقيم والخلود في دار الكرامة يقول تعالى: (والذين امنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) ٦٢ البقرة.

ومن الملاحظ أن كلمة الإيمان لا تأتي غالباً في القرآن إلا مقرونة بالعمل الصالح.

**(٤) الإيمان بالنبوة والأنبياء:**

الإيمان بالوحي الإلهي واصطفاء الله لعباده المرسلين من البشر ، وكون النبوة والوحى مصدر المعرفة الصحيح بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وجميع المسائل المنصوص عليها في الشرائع الإلهية من الأصول الثابتة في الرسالات الإلهية يقول تعالى ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسي تكليما رسلاً

(١) التوفيق / ٥٢٧

مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيز حكيما) ١٦٣/١٦٤: النساء.

هذا وإن اختلفت إحكام الشرائع والمناهج التي جاء بها الأنبياء باختلاف الأقوام والمكان والزمان.

لأن الأحكام السابقة كانت مناسبة للظروف والأحوال والبيئات الخاصة بالأمم الماضية يقول تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا) ٤٨ :المائدة.

الشرعة: الشريعة وهي الطريق الظاهر الموصل للماء والمراد بها الدين . وسمي الدين شريعة تشبيهاً بشريعة الماء، من حيث ان كلا سبب الحياة والمنهاج: الطريق الواضح في الدين، من حيث أن كلا سبب الحياة والمنهاج : الطريق الواضح.
والمنهاج : الطريق الواضح في الدين، من نَهجَ الأمر ينهج إذا وضح.

والعطف باعتبار جمع الأوصاف.
وقيل : هما بمعنى واحد وهو الطريق ، والتكرار للتأكيد أي : ولكل أمة من الأمم الحاضرة والغابرة وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بها.

فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتها ما في التوراة، والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد عليهما الصلاة والسلام شرعتها ما في الإنجيل.

وأما هذه الأمة فشرعتها ما في القرآن فقط ، فآمنوا به وأعملوا به ، وليس لأحد من بعثته ﷺ إيمان مقبول إلا الإيمان به.[1]

(١) صفوة البيان ١٩٥/١.

وذلك لأن الله ختم بنبوته عليه الصلاة والسلام الرسالات الإلهية (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ٤١: الأحزاب وختم الإلهية بالقرآن وجعل شريعته صالحة للعمل بها في كل زمان ومكان، وذلك لما تشتمل عليه هذه الشريعة من الأصول والقواعد العامة ورعاية المصالح والنظر والتأمل في مقاصد الشريعة الإسلامية التي يبني عليها استنباط الأحكام المناسبة.

لما يجد من المسائل التي يطلب فيها حكم الشرع في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

يقول تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) ٤٨ : المائدة.فمن المعلوم أن الرسالات السابقة كانت موقوتة بزمن معين، ومحدودة بمكان معين، حتى بإذن الله للبشرية بالرسالة التامة الشاملة العامة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، فأرسل بها محمدا ﷺ فكانت رسالته خاتمة الرسالات وأكملها فالإسلام هو دين الله في الأرض ولا دين سواه ومتسق غيره من الأديان والرسالات السابقة المنسوخة أو العقائد والمذاهب التي قام بوضعها البشر كأديان الهند والبوذية والهندوسية والشيوعية والعلمانية وغيرها من العقائد والذاهب المزعومة التي يكذب أصحابها رسالة الإسلام ، ,إنكار نبوة سيدنا محمد خاتم الرسل الكرام أو يكذبون بالقرآن أو يؤمنون به وينكرون بعض شرائعه ويدع ونعدم صلاحيته للعمل به في كل زمان ومكان عليهم قوله جل ذكره (ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) ٨٥ : آل عمران (أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أماذا كنتم تعملون)٨٤ : النمل (إن الدين عند الله الإسلام)١٩ : آل عمران.

# المبحث الخامس

## البعث في ضوء القرآن الكريم

ويشتمل على :

* تعريف البعث.

* أدلة البعث من القرآن:

(١) قياس الإعادة على البدء.

(٢) التنبيه بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى.

(٣) التنبيه بأن القادر على خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى.

(٤) إخبار الله على وقوع البعث المشاهد حسياً في الحياة الدنيا.

# البعث

**تعريف البعث :**

يختلف تعريف البعث في اللغة باختلاف ما علق به فقد يطلق ويراد به :

(١) الإرسال: يقال بعثت فلاناً أو ابتعته أي: أرسلته.

(٢) البعث من النوم: يقال بعثه من منامه اذا أيقظه.

(٣) الإثارة : وهو أصل البعث، ومنه قيل للناقة، بعثتها اذا أثرتها وكانت قبل باركة.

يقول الأزهري:

البعث في كلام العرب على وجهين: أحداهما : الإرسال كقول الله تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسي) ١٠٣ الأعراف .معناه أرسلناه..

والثاني : الإحياء من الله تعالى للموتى ، ومنه قوله عز وجل: (ثم بعناكم من بعد موتكم)٥٦ :البقرة أي أحييناكم.

وقال أبو هلال: بعث الخلق : اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف ومنه قوله تعالى( من بعثنا من مرقدنا) ٢٥ : يسن.

فالبعث ضربان : بشرى كبعث البعير والإنسان في حاجة وإلهي وذلك ضربان:أحدهما إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن لبس أي من لاشيء.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسي عليه السلام وأمثاله ، ومنه قوله: عز وجل (فهذا يوم البعث)٥٦ : الروم .يعنى الحشر وقوله عز وجل: (فبعث الله غرابا يبحث في الأرض )٣١ : المائدة أي قيضه.

**والمراد بالبعث في الشرع:**

البعث في الشرع يراد به : إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم إحياء للحساب والجزاء.قال الإمام ابن كثير : و البعث :هو الميعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة.

وقال السفاريني: (أما البعث فالمراد به المعاد الجسماني فأنه المتبادر عند الإطلاق إذ هو الذي يجب اعتقاده ويكفر منكره).

(فيخرجون من القبور حفاة عراة غرلاً بهماً[1] ويساقون ويجمعون إلى الموقف لمحاسبتهم ونيل كل مخلوق ما يستحقه من الجزاء العادل)

وهذا ما تشير إليه كثير من الآيات: مثل قول تعالى: ( ...وأن الله يبعث من في القبة)٧ :الحج.

وقوله : (والموتى يبعثهم الله ثم إليه ترجعون) ٣٦ الأنعام.

وبالمقارنة بين المعنى الشرعي لكلمة (البعث) والمعني اللغوي لها :تجد ترابطا ظاهراً ، وذلك أن من معاني البعث في اللغة والإثارة لما كان ساكناً من قبل.

وكذلك الإرسال كما في قوله تعالى:

(ولقد أرسلنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله)٣٦ : النحل وهذا ما جاء في كلمة البعث مراداً بها معناها الشرعي الذي هو إرسال الحياة إلى الأموات وإثارتها من جديد لتتهيأ لما يراد منها من الانطلاقة الى الموقف للحساب[2].

---

(١) غرلاً : الغزلة : جلدة الصبي التي تقطع في الختان. بهماً : الأبهم : المصمت الأعجم (ج) مجهم.

(٢) أنظر تهذيب اللغة للأزهر مادة (بعث) المفردات ٦٧ ، معجم ألفاظ القرآن ١١٠/١ المعجم الوسيط ١ /٦٢. الكليات / ٢٤٤ التوقيف ١٣٦

# أدلة البعث من القرآن الكريم

**(١) قياس الإعادة على البدء**

تنبيه ذوى العقول السليمة، وأصحاب التفكير المستنير من الناس بالنشأة الأولى ، وأن القادر على أنشاء الحياة وإيجاد المخلوقين أول مرة قادر على إعادة الحياة بعد الموت بل إعادة الصنعة بعد صنعها في عرف البشر أهون وأيسر من أنشائها وصناعتها أول مرة يقول تعالى: (وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون) ٢٩ الأعراف.

الخطاب للناس وهو احتجاج منكرى البعث والجزاء، فمعناه فليس بعثكم بأشد من ابتدائكم فهو مبنى على أن تشبيه العود بالبدء في تساويها بالنسبة لقدرة الله.

وفيها إنذار بالبعث, احتجاج عليه بالبدء فالمعني: ادعوه مخلصين فإنكم مبعوثون مجازون ، وإن بعد ذلك في عقولكم فاعتبروا بالابتداء، واعملوا انه كما بدأكم في الخلق الأول فإنه يبعثكم فتعودون في الخلق الثاني[1].

وهذه الآية نحو قوله تعالى:( أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد)١٥ ق (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ٢٧ الروم

يقول تعالى: ( أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى) ٤٠ -٣٦ القيامة .فهذا يدل على أن القادر على خلق الإنسان من التراب كم اخلق أدم عليه السلام أو خلق نبيه من ماء مهين قادر على إعادة الناس للجزاء يوم القيامة.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٨٩/٨ ، الميزان ٨/ ٧٨

**(٢) التنبيه بإحياء الأرض بعد موتها على احياء الموتى:**

القرآن يلفت نظر العقلاء من البشر، ويرشدهم إلى التأمل والتفكر فيما حولهم من بديع آيات الله الكونية التي يشاهدونها ليلا ونهارا ومن أبرز هذه الآيات إحياء الله الأرض بعد موتها بالنبات ولاشك أن عالم النبات، وما يشتمل عليه من أسرار القدرة الإلهية على الخلق والإيجاد والإبداع دليل واضح وبرهان ساطع لذوي العقول السليمة على قدرة الله على إحياء الموتى من قبورهم للجزاء والحساب يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٣٩ :فصلت

الخشوع :التذلل ، والاهتزاز :التحرك الشديد ، والربو:النشوء والنماء والعلو، واهتزاز الأرض وربوها تحركها بنباتها وارتفاعها.

وفي الآية استعارة تمثيلية شبهت فيها الأرض في جدبها وخلوها عن النبات ثم اخضرارها ونمو نباتها وعلوه، بشخص كان وضيع الحال رث الثياب متذللاً خاشعاً ثم أصاب مالا يقيم أوده فلبس أفخر الثياب وانتصب ناشطاً متبختراً يعرف في وجهه نضرة النعيم(١).

وهذا استدلال بهذا الصنع العظيم على أنه تعالى منفرد بفعله فهو دليل الهيمنة دون غيره، لأن من يفعل ما لا يفعله غيره هو الإله الحق ، وإذا كان كذلك لم يجز أن يتعدد الكون من لا يفعل مثل فعله ناقص القدرة ، والنقص ينافي الإلهية كما قال:(أفمن يخلق كمن لا يخلق) (٢) فالآية مسوقة للاحتجاج على قدرة الله على إحياء الموتى للثواب والعقاب.

**(٣) التنبيه بأن القادر على خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى:**

يدعو القرآن العقول البشرية للتأمل والنظر في خلق السموات والأرض وما بينها من عجائب المخلوقات ولاشك أنهم بعد هذه الرحلة من التأمل سيقرون بأن خلق السموات

(١) الميزان ٣٩٢/١٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٠٢/٢٤.

والأرض أكبر من خلق الناس وهذا الإقرار مقدمة لإيمان كل عاقل بالبعث والجزاء ، لأن العقل البشري السليم الخالي عن إتباع الهوى يسلم بأن القادر على خلق أعظم الموجودات كالسموات والأرض والنجوم والكواكب قادر من باب أولى على خلق ما هو أصغر من هذه الكائنات العظيمة ، وإعادته بعد الموت كالإنسان والحيوان يقول تعالى:﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ ٢٧ : النازعات.

ويقول تعالى: ( أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى....)٣٣ : الأحقاق.

وقوله : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ٥٧غافر.

**(٤) القسم في القرآن على وقوع البعث:**

للقسم منزلة وأهمية في كلام العرب، ومن ثم استخدم القرآن القسم رعاية لأسلوب العرب في الخطاب، فهو يستخدم في لغة العرب والقرآن .

أولاً: تأكيد الخبر وتقريره، وتلك عادة كانت عند العرب، الذين كانوا يقطعون كلامهم بالقسم ، يقول السيوطي: ( القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده)[1].

ثانياً: القسم يزيل تردد المخاطب ، كما يزيل إنكاره ، ومن هنا كثر القسم في الآيات المكية، لأن أهل مكة كانوا أهل عناد ومكابرة والقسم من المؤكدات التي تزيل ترددهم وإنكارهم.

---

(١) الاتقان ١٠٤٨/٢.

ثالثاً: إثبات الميعاد، وقد أكد الله على ذلك لأن القوم تمادوا في إنكار البعث، ومن الجدير بالذكر أن الله أمر رسوله بأن يقسم على وقوع البعث في ثلاثة مواضع من القرآن هي:

(أ) قوله تعالى: ( وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ) : سبأ

(ب) قوله تعالى :( زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن، ثم لتنبؤن بما عملتم)

(ج) قوله تعالى: (ويستنبؤنك أحق هو، قل أي وربي انه لحق وما أنتم بمعجزين) ٥٣ يونس

وفي هذه الأقسام الثلاثة تأكيد لوقوع البعث، وكونها صادرة من رسول الله ﷺ تأكيد أخر حيث يعلم القوم صدقه، وما جربوا عليه كذباً أضف إلى ذلك أنهم كانوا يعظمون الأيمان ويقولون إن الكذب عاقبته غير محمودة[1].

**(٥) إخبار الله بوقوع البعث المشاهد حسباً في الحياة الدنيا:**

أخبر القرآن بوقوع البعث في الحياة الدنيا في عدة مواضع من القرآن وهو بعث حسي لطوائف من الإنسان والحيوان، وبذلك يكون إحياء الله للموتى في الدنيا دليلا على بعث الخلائق يوم القيامة هذا بيان مواضعها في القرآن:

يقول تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ

(١) انظر الاتقان في علوم القرآن النوع السابع والستون من ١٠٤٨ : ١٠٥٣ ... مباحث في علوم القرآن / ٢٨٥.

ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٥٩ : البقرة.

(أو كالذي مرّ) أي أو رأيت مثل الذي مرّ على قرية -وهو عند أكثر المفسرين عزيز - أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة، كما طلب ذلك إبراهيم عليه السلام ليطمئن قلبه.

(وهي خاوية) ساقطة على سقوفها التي سقطت يقال: خوي البيت: سقط، أو خالية من الناس ثابتة على عروشها.

والعروش: جمع عرش، وهو سقف البيت ويسمي العريش، وكل ما يهيأ ليظل أو يكن فهو عريش وعرش(لم يسنه) لم يتغير بمر السنين الطويلة عليه، ولم تذهب طراوته، فكأنه لم تمر عليه السنون (ولنجعلك آي) أي وفعلنا ما فعلناه من الأمانة والإحياء لنجعلك أية للناس وعبرة ، ودلالة على البعث بعد الموت.

(كيف تنشزها) كيف ترفعها من أماكنها من الأرض فنردها إلى أماكنها من الجسم، وتؤلف بينها من الانشاز وهو الرفع ، وقرئ (ننشرها) أي نحييها، من أنشر الله الموتى أي أحياهم[1].

(ب) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦٠ :البقرة.

(١) انظر الاتقان في علوم القرآن النوع السابع والستون من ١٠٤٨ : ١٠٥٣ ... مباحث في علوم القرآن / ٢٨٥.

(أرني كيف تحي) بصرني كيفية إحيائك الموتى. وسؤاله عليه السلام ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عمق اليقين ، أو من مرتبة العلم الاستدلالي إلى مرتبة العلم الضروري الناشئ عن الحس[١].

(فصرهن إليك) فأملهن واضممهن إليك ، لتتأملهم وتعرف أشكالهم وهيئاتن ، كيلا تلتبس عليك بعد الأحياء ، ثم جزئهم أجزاء ، أو فقطعهن[٢].

(ج)موت بني إسرائيل الذين طلبوا رؤية الله جهراً.

تقطع بنو إسرائيل في إيمانهم واشترطوا رؤية الله بحاسة البصر في الدنيا.

يقول تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسي لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ ٥٦ ـ ٥٥ البقرة.

(جهرة)جهاراً عياناً بحاسة البصر.

وجهر الرجل : رآه بلا حجاب.

(فأخذتكم الصاعقة) فأحاطت بكم نار من السماء أحرقتكم عقاباً لكم لفرط عنادكم، أو لظلمكم رؤية الحق في الدنيا ونزول الصواعق المهلكة من السماء واقع مشاهد.

(ثم بعثناكم من بعد موتكم) الجمهور على أن الموت هنا هو مفارقة الروح للجسد ، والبعث: إحياؤه بإعادة الروح إليه[٣].

(د) إحياء الله قتيل بني إسرائيل معجزة لنبي الله موسي: يقول الله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ ٧٣ البقرة

---

(١) صفوة البيان ١/ ٨٥ -٨٦.
(٢) صفوة البيان ١/ ٣٤.
(٣) صفوة البيان ١/ ٢٩.

(فقلنا اضربوه ببعضها) أي اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة، فضربوه بها، فأحياه الله وأخبر عن قاتله ثم سقط ميتاً.

وهذه معجزة أجراها الله تعالى على يد موسى عليه السلام في هذه الحادثة للدلالة على صدق رسالته ووجوب إتباعه، كما أجرى على يد عيسى عليه السلام إحياء الموتى[1].

(هـ) إخبار الله عن إماتة آلاف من الناس خرجوا من ديارهم حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم

يقول تعالى: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ٢٤٣ : البقرة.

(ألم تر إلى الذين خرجوا) كان المشركون يستفتون اليهود في كثير من الأمور، وكانت هذه القصة معلومة لليهود في أسفارهم وتواريخهم، فنزل القرآن بالإشارة إليها ليرتدع المشركون عما هم فيه من الضلال وإنكار البعث ويعلموا إن دلائل القدرة على البعث مشهورة، وان عند اليهود منها ما لو رجعوا إليهم فيه لعلموا أنه حق لا ريب فيه.

وفي ذكر هذه القصة مع ذلك تشجيع للمؤمنين على الجهاد والتعرض للشهادة وتمهيد لما بعد هذه الآية.

ومعني: (ألم تر) الم تعلم: وتستعمل فيما تقدم للمخاطب العلم به . وفيما لم يعلم به من قبل.

والخطاب للرسول ﷺ والمراد منه والمقصود: حثهم على العلم بها، والاعتبار بشأنها[2].

---

(١) صفوة البيان ١/٣٤.
(٢) صفوة البيان ١/٨٠.

(و) إخبار الله عن أهل الكهف وهم فتية آمنوا بربهم وتحابوا فيه، وفروا إلى الله بدينهم فأواهم الله في ذلك الكهف الذي كان قبراً لهم مئات السنين إلى حين أراد الله ظهورهم.

فهذه القصة من اكبر الأدلة على إحياء الله للناس بعد موتهم لأن الله أنامهم في كهفهم مئات السنين بقدرته ، وأيقظهم من هذا السبات الطويل بمشيئته وإرادته وقدرته سبحانه وتعالى ومن المعلوم لدى أهل العلم إن النوم هو الموتة الصغرى وقد كان نوم أهل الكهف في كهفهم هذه المدة الطويلة أية عجيبة من آيات الله في الكون والحياة[1].

(١) أنظر الآيات ٩ -١٢ : الكهف.

# المبحث السادس

## الأخلاق في ضوء القرآن الكريم

ويشتمل على :

- ❖ تعريف الأخلاق.
- ❖ الأخلاق فطرية ومكتسبة.
- ❖ الرسول القرآني : (فقه النص القرآني)
- ❖ النبي يحث أمته على التحلي بمكارم الأخلاق.

# الأخلاق في ضوء القرآن الكريم

**تعريف الأخلاق:**

الخُلق: بضمتين وسكون الثاني أيضاً في اللغة: العادة والطبيعة والدين والمروءة والجمع الأخلاق.

**الخلق إصطلاحاً:**

هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سميت الهيئة خلقاً حسناً.

وإن كانت الهيئة الصادر منها الأفعال القبيحة سميت خلقاً سيئاً.

وإنما قلنا أنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال بصورة نادرة، وحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه.

وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحكم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، بل الهيئة الراسخة في النفس.

قيل شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو المانع، وربما يكون خلقه البخل، وهو يبذل لباعث أو غرض في نفسه أو رياء[1].

التعريف الجامع المانع للأخلاق: قوة في النفس راسخة تنزع بها في يسر وسهولة إلى اختيار ما هو خير وصلاح أو شر وجور، وذلك بمعيار الشرع الإلهي والفطرة السليمة كان خلقاً حسناً، وإن لم يكن كذلك كان خلقاً سيئاً[2].

---

(١) التعريفات / ١٠١.

(٢) انظر كشاف اصطلاح الفنون ٧٢/١ ، الكليان ٤/٤ ، ٤٢٩.

# الأخلاق فطرية ومكتسبة

المتأمل في الأخلاق البشرية يشاهد عن قرب أن الإنسان لا يخلو عن أن يكون مفطوراً على جبلّه وخليقة فطره الله تعالى عليها، حميمة كانت أو ذميمة، والناس أمام هذه الجبلات الخلقية تتفاوت حظوظهم من تلك الأخلاق، قلة وكثرة: وقد دل على فطرية الناس على الأخلاق - حسنها وقبيحها - نصوص الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقد دل على ذلك آيات كثيرة كان منها يقول الحق تعالى عن الإنسان. (إن هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)٣ : الإنسان.

والهداية التي هي نوع إيذان وإعلام منه تعالى للإنسان هداية فطرية هي تنبيه بسبب نوع خلقته وما جهز به وجوده بإلهام من الله سبحانه على حق الاعتقاد وصالح العمل[١].
والشكر هو مقابلة نعم المنعم بالثناء عليه بما هو أهل له، ومقابلة النعم بالشكر دليل على حسن الخلق.

وأما الكفران هو ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها[٢] فهو دليل واضح على سوء خلق صاحبه، وذلك ما فيه من جحود النعمة وعدم الاعتراف بنسبة الحق لصاحبه وهو الله عز وجل: المتفضل على خلقه بجميع النعم.

ومن الآيات الدالة على أن الأخلاق فطرية ومكتسبة قوله تعالى: ( ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من دساها) ٧□١٠ الشمس

(١) الميزان ٢٠/١٢٣.
(٢) التوقيف / ٦٠٦.

وتسوية النفس: خلقها سواء، أي غير متفاوتة الخلق، فالتسوية حاصلة من وقت تمام خلقة الجنين من أول أطوار الصبا، إذ التسوية تعديل الخلقة وإيجاد القوي الجسدية والعقلية ثم تزداد كيفية القوي فيحصل الإلهام.

ويطلق الإلهام إطلاقاً خاصاً على حدوث علم في النفس بدون تعليم ولا تجربة ولا تفكير فهو علم يحصل من غير دليل سواء ما كان منه وجدانياً كالانسياق إلى المعلومات الضرورية والوجدانية.

وما كان منه عن دليل كالتجريبات والأمور الفكرية النظرية، وإيثار هذا الفعل هنا ليشمل جميع علوم الإنسان.

والمعنى هنا: أن من آثار تسوية النفس إدراك العلوم الأولية والإدراك الضروري المدّرج ابتداء من الانسياق الجبلي نحو الأمور النافعة لطلب الرضيع الثدي أول مرة، ومنه اتقاء الضار كالفار مما يُكره، إلى أن يبلغ ذلك إلى أول مراتب الاكتساب بالنظر العقلي، وكل ذلك إلهام.

وقد أفلح من ذكّى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهي.[1] والخلاصة أن الله تعالى ألهم كل نفس الفجور والتقوى ومعنى ألهمها عرفها ذلك وبينه لها والمعنى على كل: أنه سبحانه جعل أنفس البشر على نوعين: قابلة للخير، أو للشر.

فالنفس الأولى هي التي تقبل على الخيرات فيصدر عنها مكارم الأخلاق، وقد عنون القرآن عنها بالتقوى التي هي اسم جامع لجمي المكارم ولكل خير، والنفس الثانية هي التي يصدر عنها مساوئ الأخلاق، وقد عنون القرآن عنها بالفجور الذي هو اسم جامع لكل رذيلة وشر، فدلت الآيتان على أن الإنسان مفطور على معرفة الخير أو الشر، وعلى تمييزه بينها.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٧٠-.

وقد أمر الله الإنسان بتزكية النفس، والالتزام بكل خلق حسن، ونهى الله الإنسان عن إفساد النفس بتجنب الأخلاق الفاسدة.

ولذلك جعل الله الفلاح مترتباً على مجاهدة النفس وتزكيتها (قد أفلح من زكاها)، والخسران نتيجة لإهمال مجاهدة النفس (وقد خاب من دساها).

ومعنى دسّاها: حال بينها وبين فعل الخير.

وقد أيد هذا المفهوم القرآني منطوق السنة النبوية الصحيحة، وذلك في أعقاب أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي:

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[١].

فقوله: (الناس معادن) دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية، وفيه يثبت الرسول ﷺ أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقاً والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك: من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها، متوقياً لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغير ذلك.

(٢) أخرج أبو داود وغيره في قصة أشجّ عبد القيس حيث قال له النبي ﷺ (إن فيك خلّتين يحبها الله: الحلم والأناة، قال: يا رسول الله أنا أتخلق بها، أم الله جبلني عليها؟ قال: بل الله جبلك عليهما. قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله[٢].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ح ١٦٠، ب ٤٩، ك ٤٥، وانظر مشكاة المصابيح ٢٠١، ٣٥٨/١

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود، وانظر شرح مشكاة المصابيح حديث ١٠٠، ٢٥٢/١.

فالحديث نصح صريح على أن الله تعالى فطره على خلقين كريمين هما الحلم والأناه، وأن الأخلاق منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب، وأنها محبوبان لله تعالى ويلزم من محبته سبحانه لهذين الخلقين الكريمين وأمثالها محبة من يتخلف بها على وجهها الشرعي، لأن الله تعالى ما أحبها إلا ليتحلى بها عباده.

(٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

(إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب) وهذا الحديث نص صريح في الدلالة على فطر الناس على سهولة الأخلاق ولين الجانب، أو الحزونة التي هي الفظاظة والغلظة وعدم لين الجانب وكذلك طيب المعدن، وخبث الطبع.

فهذه الأخلاق محمودها ومذمومها وأن الناس فيها مختلفون كاختلافهم في الألوان الحلقية من سواد وبياض.

والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

# عناية القرآن الكريم بالأخلاق

الذي يتأمل الحياة الاجتماعية للأمم والشعوب العرب منهم والعجم في بداية عصر البعثة النبوية يشاهد عن قرب أن معظم مكارم الأخلاق التي جاءت بها الشرائع الإلهية قد اندثرت معالمها وولت مدبرة من حياة الناس وسلوكهم الفردي والجماعي، وذلك لبعد البلدان العربية عن الرسالة الإلهية، حيث إن الأنبياء الذين بعثوا إلى العرب كهود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام قد اندثرت تعاليمهم والمبادئ والأصول والشرائع والأخلاق التي جاءوا بها إلى الناس لبعد الفترة الزمنية بين بعثة هؤلاء الأنبياء وبين رسالة سيدنا محمد ﷺ، ولم يبق في البلدان العربية من أثر ديانات الأنبياء السابقين اللهم إلا ما كان من بقايا الحنيفية ملة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

واسماعيل هو جد العرب المستعربة، ومع ذلك فقد تباعد العهد بحنيفية إبراهيم وإسماعيل ففيرت الوثنية معالم الديانة الحنيفية، فعبدت الأصنام مع الله سبحانه وأشرك بالله غيره .وخرجوا من الإسلام الذي وصى به إبراهيم بنيه .وإلى جانب هذه الوثنية في الإعتقاد فسدت أخلاقهم فشربوا الخمر ليل نهار، ولعبوا الميسر والقمار وبلغت بهم قسوة القلب وغلظُ الطبع وسوء الحال إلى حد وأد البنات ودفنهن أحياءً بل كانت تغير القبائل بعضها على بعض لسلب متاع الحياة الدنيا أو لأجل أسباب حقيرة تافهة بل كانوا يقطعون الطريق على القوافل الآمنة في ذهابها وإيابها لسلب ما تحمله هذه القوافل.

وأما المرأة فكانت في أسوأ حال فلا نصيب لها في الميراث لأن المال عندهم لمن حمل السلاح، ودافع عن المال والأهل والولد، بل بلغ من شأن المرأة في عرف هذه النظم الفاسدة أنها كانت تورث كما يورث المتاع، بل قسموا الطعام المأكول إلى ما هو مباح أكله للرجال محرم إطعامه للنساء وأما الرجل في هذه البيئة فله أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد للعدد.

وكان فيهم من يلجأ إلى قتل أولاده خشية الإنفاق عليهم وخوفاً من الوقوع في الفقر والإملاق، إلى غير ذلك من المفاسد ومنكرات الأخلاق.

وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فكانوا أسوأ حال من العرب فغيروا دينهم، وحرفوا كتبهم وزادوا فيها ونقصوا منها تبعاً لأهوائهم وشهواتهم.

فأحلوا ما حرم الله، واتبعوا أهواءهم في أصول الدين، وفي تشريع العبادات والمعاملات. وهذا ما أخبر الله عنهم بقوله تعالى:

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٥ : البقرة.

قوله سبحانه (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه)٤٦ : النساء.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنهم حرفوا الكتب المنزلة عليهم من التوراة والإنجيل التي استأمنهم الله بحفظها، وتخلو عن مكارم الأخلاق التي اتفقت عليها الشرائع، وأرسى قواعدها عباد الله المرسلين كما قال سبحانه: (لقد جاءت رسل ربنا بالحق)٤٣ : الأعراف.

وأما بلاد فارس فكانوا يعبدون النار من دون الله عز وجل، وكثر فسادهم وازداد طغيانهم، فالذي يتأمل أحوال الناس في جميع أجزاء الأرض من عُرب ومن عجم يقف على جميع أنواع الفساد الديني والاجتماعي، والمالي والأخلاقي والتجبر والطغيان في الأرض، وقانون الغاب هو الذي يحكم ويسيطر على جميع أجزاء المعمورة.

فكان لابد أن تأتي رسالة جديدة تختم بها الرسالات الإلهية، وشريعة جديدة صالحة لتنظيم الحياة في كل زمان ومكان.

لذلك أرسل الله سيدنا محمداً برسالة عامة إلى الناس جميعاً إلى يوم القيامة.
(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)٢٨ :سبأ

هذه الرسالة تعيد الناس إلى رشدهم وإلى الفطرة القويمة السليمة التي فطر الله الناس عليها قبل أن تنحرف بها البشرية وتزيغ بها عن جادة الطريق فرسالة الإسلام جاءت لتعيد الأمة إلى الفطرة السليمة والنهج القويم الذي أراده الله تعالى من عباده في سلوكهم معه ومع خلقه، فكان ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الأخلاقي في القرآن الكريم.

# الرسول القرآني

أنزل الله القرآن مشتملاً على المنهج الإلهي لإصلاح الفرد والمجتمع في جميع شئون الحياة.

وقد إلتزم الرسول بهذا المنهج الإلهي في أقواله وأفعاله وسلوكه وفي جميع شئون حياته فكان ﷺ قرآناً يمشي بين الناس فالرسول والمنهج الإلهي وجهان لعملة واحدة، وبهذا استطاع أن يؤثر في كل من حوله ممن شرح الله صدورهم وعقولهم واستضاءوا بنور الإسلام وهذا ما شهد به أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ فحينما سئلت الصِّديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن) لذلك جعله الله المثل الأعلى والقدوة الصالحة للأمة الإسلامية جميعاً إلى يوم القيامة يقول تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ٢١ :الأحزاب.

والأسوة بكسر الهمزة وضمها اسم لما يؤتسى به، أي يقتضي به ويعمل مثل عمله وحق الأسوة أن يكون المؤتسي به هو القدوة ولذلك فحرف (في) جاء على أسلوب ما يسمى بالتجريد المفيد للمبالغة، فالأصل: رسول الله أسوة، فقيل: في رسول الله ﷺ أسوة وجعل متعلق الإنسان ذات الرسول دون وصف خاص ليشمل الائتساء به في أقواله بامتثال أوامره واجتناب ما ينهي عنه، والائتساء بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات.

وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبي ﷺ وأنه الإسوة الحسنة لا محالة ، والخطاب في الآية للمؤمنين في عموم جماعتهم ثناء على ثباتهم وتأسيهم بالرسول ﷺ على تفاوت درجاتهم في ذلك الائتساء[1].

فالرسول ﷺ هو القدوة الصالحة في أقواله وأفعاله وفي الثقة بالله والثبات في الشدائد، والصبر على المكاره[2].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/٢١.

(٢) صفوة البيان ١٨٠/٢.

ولأن القدوة الحسنة والسلوك المستقيم لها تأثير عجيب في حياة الفرد والجماعة ذكر العلماء الربانيون هذا المعنى بقولهم:
(حال رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل).

وهذه القدوة الصالحة والأسوة الحسنة منهج عباد الله المرسلين، فلا يمكن أن يختلف سلوك نبي من أنبياء الله عن منهج الله الذي أرسله به، فهذا نبي الله شعيب يخاطب قومه قائلاً:

قال﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ٨٨ :هود.

المراد بالرزق الحسن نعمة النبوة ، ومعنى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) عند جميع المفسرين من التابعين فمن بعدهم.

ما أريد مما نهيتكم عنه أن امنعكم أفعالاً وأنا أفعلها ، أي لم أكن لأنهاكم عن شيء وأنا أفعله .أو أن أفعل خلاف الأفعال التي نهيتكم عنها بأن أصرفكم عنها وأنا أصير إليها ، والمقصود: بيان أنه مأمور بذلك أمراً يعم الأمة وإياه وذلك شأن الشرائع .كما قال علماؤنا: (إن خطاب الأمة يشمل الرسول عليه الصلاة والسلام ما لم يدل دليل على تخصيصه بخلاف ذلك[1] وهذه القيمة الخلقية، والمبدأ الثابت في حياة الأنبياء عليهم السلام، وهي ألا يخالف قول النبي فعله، فذلك لما يتمتعون به من رسوخ أقدامهم على الثبات على المبدأ الذي يدعون الناس إليه والتحلي بمكارم الأخلاق والتمسك بكل فضيلة، والمتتبع لحياة الأنبياء يرى ذلك بوضوح.

(١) المصدر السابق ١٩/١٧١.

وهذا هو القرآن يبين القيمة العظيمة للأخلاق الفاضلة بوصف خاتم النبيين برقيه أعلى منازل الفضائل، وأعظم مراتب الخلق الكريم وذلك في قوله تعالى:
(وإنّك لعلى خُلُقٍ عَظِيم) ٤ : القلم.

والخلق: طباع النفس، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذا لم يُتبع بنعت، وقد تقدم عند قوله تعالى: (إنْ هذا إلا خلق الأولين) الشعراء: ١٧٣[1].

والعظيم: الرفيع القدر وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة (وعلى) للاستعلاء المجازي المراد به التمكن.

وفي حديث عائشة ( أنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن) أي ما تضمنه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم والنهى عن أضدادها.

والخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي ﷺ فهو حسن معاملته الناس على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن.

ولهذا قالت عائشة (كان خلقه القرآن) ألستَ تقرأ (قد أفلح المؤمنون) الآيات العشر.
وعن عليّ الخلق العظيم: هو أدب القرآن ويشتمل ذلك كل ما وصف به القرآن محامد الأخلاق وما وصف به النبي ﷺ من نحو قوله : ( فبما رحمة من الله لِنتَ لهم) وقوله: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وغير ذلك من آيات القرآن، وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن قال رسول الله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول ﷺ أكبر مظهر لما في شرعه قال تعالى: (ثم جعلناك على شريعة من الأمر

(١) المصدر السابق ١٩/١٧١.

فاتبعها) وأمره أن يقول: (وأنا أول المسلمين) فكما جعل الله ورسوله ﷺ على خلق عظيم جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهي الاستطاعة.

وبهذا يزداد وضوحاً معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: (وإنك لعلى خلق عظيم).

فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية.

وأعلم أن جُماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد والعفة، والعفو، والحمود ، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحُكمه وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه. وتأديب أهله ومَن لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس، وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول الله ﷺ ففي ذلك كله وسياسيته أمته، وفيما خص به من فصاحة كلامه وجوامع كلمه(١).

**ابتعاد الأمة عن أغلب الأصول والمبادئ والأخلاق الفردية والاجتماعية فعوقبت بعدم التمكين في الأرض:**

الذي يتأمل حركة التاريخ ويمعن النظر في الحضارة الإسلامية، ويتدبر القرآن التدبر الأمثل يرى أن الحضارة الإسلامية قامت على أصول وقواعد ثابتة، ومبادئ أخلاقية سامية كان منها ما ذكره الله في قوله:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ

(١) التحرير والتنوير ٢٩ ٦٥ ١٣

أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ٥٥ : النور:

(وعد الله):

وَعَدَه شيئاً وَعداً وعِدَة: أخبره أنه سيحدث هذا الشيء له، ونقول: وعدت أخي أن أعطيه مالاً، وقد يكون الوعد إخباراً بشيء يحدث متعلق بالمخُبر مثل: سأزورك غداً وقد يكون هذا في الخير والشر.

ويقال: وعد العبد ربه بالطاعة والإخلاص إذا أخذ على نفسه ذلك وضمن أن يفعله.

ووعد الشيطان الإنسان: وسوس له بالشر(١): (الذين آمنوا) الاسم الموصول عام في جميع الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة، ولا يختص بمعين وعمومه عُرفي، أي غالب فلا يتأكده ما يكون في الأمة من مقصرين في عمل الصالحات فإن تلك المنافع عائدة على مجموع الأمة.

(آمنوا) وقد جعل الله الإيمان عمود الاستخلاف والتمكين في الأرض، لأنه جالب لرضا الله وحصول عنايته بالأمة.

(منكم) الخطاب لأمة الدعوة بمشريكها ومنافقيها بأن الفريق الذي يتحقق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود بهذا الوعد.

(وعملوا الصالحات) فالصالحات جمع صالحة: وهي الخصلة والفعلة ذات الصلاح، أي التي شهد الشرع بأنها صالحة.

والتعريف في (الصالحات) للاستغراق، أي عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد لأن إبطال الفساد

(١) معجم ألفاظ القرآن ٨٥٩/٢، المفردات للراغب ٨٢٦/

صلاح: والعمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان، لأن العطف يقتضي المغايرة، فالعمل الصالح شرط كمال للإيمان كما ذهب إلى ذلك أهل السنة والجماعة، وليس شرط صحة للإيمان كما ذهب إلى ذلك الخوارج فكفروا المسلم بالمعصية (ليستخلفنهم في الأرض.

والاستخلاف: جعلهم خلفاء، أي عن الله في تدبير شؤون عباده، والسين والتاء للتأكيد وأصله: ليخلفنهم في الأرض.

والمراد من (الأرض) جميعُها، وأن الظرفية المدلولة بحرف (في) ظاهرة في جزء من الأرض وهو موطن حكومة الأمة وحيث تنال أحكامها سكانه. (وليمكنن لهم دينهم).

وتمكين الدين: انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه، استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار، لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام فكان كالشيء المثبّت المرسخ .وإذا كان متبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل. وقدم (لهم) للإيماء إلى العناية بهم، أي يكون التمكين لأجلهم.

(دينهم الذي ارتضى لهم)

وإضافة الدين إلى ضمير هم لتشريفهم به لأنه دين الله كما دل عليه قوله: (الذي ارتضى لهم) أي الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنه اختارهم أيضاً ليكونوا إتباع هذا الدين .وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم.

(وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً).

لم يقل: وليؤمننهم كما قال في سابقيه لأنهم ما كانوا يطمحون يومئذ إلا إلى الأمن، فكانوا في حالة هي ضد الأمن ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منّة واحدة وتنكير (أمنا) للتعظيم بقرينة كونه مبدلاً من بعد خوفهم المعروف بالشدة.

والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين وفيه بشارة بأن الله مزيل الشرك والنفاق من الأمة.

(يعبدونني)

أي وعدتهم هذا الوعد الشامل لهم والباقي في خلقهم لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الإشراك .وعبر بالمضارع لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضاً بالمنافقين إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون.

(لا يشركون بي شيئاً)

قيد العبادة بعدم الشرك لأن المشركين قد يعبدون الله ولكنهم يشركون معه غيره . وفي هاتين الجملتين ما يؤيد ما قدمناه آنفاً من كون الإيمان هو الشريطة في كفالة الله للأمة هذا الوعد.

وجملة (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة دفعاً للاتكال.

والإشارة في قوله (بعد ذلك) إلى الإيمان المعبر عنه هنا بـ (يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) والمعبر عنه في أول الآيات بقوله: (وعد الله الذين آمنوا) أي ومن كفر بعد الإيمان وما حصل من البشارة عليه فهم الفاسقون عن الحق[1].

(١) أنظر التحرير والتنوير ١٨/ من ٢٨٨: ٢٨١.

# فقه النص القرآني

كان المسلمون واثقين بالأمن ولكن الله قدم على وَعدهم بالأمن أن وَعَدَهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيهاً لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها. ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمناً إيماء إلى التهيوء لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول ﷺ (فإن تطيعوه تهتدوا) وإذا حلّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات.

وقد بين الله تعالى أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان سوله ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ النحل : ٩٠.

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ ﴾ النساء :٢٩ .

وقوله في سياق الذم: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ البقرة : ٢٠٥.

وقوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ محمد : ٢٢.

وبين الرسول عليه الصلاة والسلام تصرفات ولاة الأمور في شؤون الرعية ومع أهل الذمة ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبين أصول المعاملات بين الناس.

فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة بإتباع ما وضّح لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل .وهذه التكاليف التي جعلها الله قواماً لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها ، وكانت الموعدة كالمسبب عليها فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وجُعل الإيمان عمودها وشرطاً للخروج من عهدة التكليف بها وتوثيقاً لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته.

فيه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها بحيث يدفع عنها العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها ، وعند تخليطهم الصلاح بالفساد فرفق بهم ولم يعجّل لهم الشر وتلوّم لهم في إنزال العقوبة.

فلو أن قوماً غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنوا من سيرتهم صوراً تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون لأن تلك الأعمال صارت أسباباً وسنناً تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سنناً وقوانين عمرانية سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم بجحوده أو بالإشراك به أو بعدم تصديق رسوله يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد ، ألا ترى أن القادة الأوروبيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بعا مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان فعظمت دولهم واستقامت أمورهم[1].

وقد تسلط الكفار والمشركين واليهود والنصارى على الممالك الإسلامية إن انحرف المسلمون عن نصرة دين الله وابتعدوا عن منهجه ، وأعرضوا عن القيم والمثل العليا والمبادئ الأخلاقية التي جاء بها الإسلام وقررها القرآن.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٢/١٨ : ٢٨٥.

ونحن نرى الدول التي لا تدين بالإسلام تقيم السوق الأوروبية المشتركة، والعملة الأوروبية الموحدة وتدخل هذه الدول جميعاً في حلف واحد للدفاع المشترك أما الأمة الإسلامية فهي على النقيض من ذلك كله ما أنها انتمى لدين واحد(الإسلام) ، وتؤمن بكتاب واحد .

(القرآن) ، وتتبع رسولا واحداً ( سيدنا محمد ﷺ ) ، وتتجه إلى قبلة واحدة ( الكعبة المشرفة)، وإله واحد لا شريك له يأمرهم فيقول: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء : ٩٢ . ويأمر القرآن الأمة الإسلامية منذ مئات السنين باتفاقية الدفاع المشترك في قوله جل ذكره : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ الأنفال : ٦٠.

والأمر بإعداد القوة المناسبة لكل عصر للأمة الإسلامية جميعاً فيجب على الأمة بهذا النص القرآني إعداد جميع أنواع القوة اللازمة لحماية الأمة على أحدث أساليب العلم والتكنولوجيا المناسبة لكل زمان ومكان وذلك حتى تتمكن الأمة من حماية أرضها ودينها وعرضها ونفسها وثرواتها من بطش أعدائها وإن قصرت الأمة في إعداد القوة المناسبة ملك العدو رقابها ، واحتل أرضها وهتك عرضها ونهب ثرواتها ، وقام العدو بالغزو الثقافي لعقول أبنائها وعمل العدو على نشر الانحلال الديني والخلقي والفساد في أرجاء الأمة ، ولا نجاة لأمتنا الإسلامية من كيدا لأعداء إلا بالوحدة وإعداد القوة ونبذ الخلافات التي يزرعها الأعداء بين أبناء الأمة ، وأن تقوم أمتنا بحل مشاكلها الداخلية بنفسها ، ولا تعطي الفرصة لعدوها بتوسيع رقعة الخلافات فيما بينها وهذا ما يشير إليه قوله جل ذكره:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الحجرات: ٩ - ١٠.

ويجب على الأمة العودة لهويتها الإسلامية فالإسلام نسب كل مسلم﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران : ١٩.

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات : ١٣.

وفي هذا المقام يجب على الأمة أن تنتبه لمكر عدوها الذي يزرع بين صفوف أمتنا النزعات العرقية والقبلية حتى يقضي على هوية المسلم بترك نسبته إلى دينه ويصبح ضحية للأفكار الهدامة والنزعات العرقية والقبلية التي تعمل على زيادة الحقد والكراهية والبغضاء، وكثرة الخلافات بين المسلمين وبذلك لا تقوم لهم قائمة أبداً ويصبح الكلام على وحدة الأمة ضرباً من الخيال، وبجميع ذلك لا يتم لأمتنا وعد الله لها بالتمكين في الأرض يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ الحج : ٤١.

المراد: كل من نصر الدين من أجيال المسلمين أي مكناهم بالنصر الموعود به إن نصروا دين الله وعلى الاحتمالين فالكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام فإن بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرّطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله.

فأما إقامة الصلاة فدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم.

والتمكين : التوثيق ، وأصله إقرار الشيء في مكان وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك.

والمعروف : ما هو مقرر من شؤون الدين.

إما بكونه معروفاً للأمة كلها، وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائر الأمة، وإما بكونه معروفاً لطائفة منهم وهو دقائق الأحكام فيأمر به الذين من شأنهم أن يعلموه وهم العلماء على تفاوت مراتب العلم ومراتب علمائه.

والمنكر. ما شأنه أن ينكر في الدين، أي لا يرضى بأنه من الدين، وذلك كل عمل يدخل في أمور الأمة والشريعة وهو مخالف لها، فعلم أن المقصود بالمنكر الأعمال التي يراد إدخالها في شريعة المسلمين وهي مخالفة لها، فلا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم مما هو في منطقة المباح[1]

فيجب على الأمة أن تعود إلى الأصول والمبادئ القرآنية العالية والأخلاق ، ولا تفصل في حياتها بين المنهج الإلهي وسلوكها في الحياة حتى يمكن الله لها في الأرض . أو تزول عنها الغمة.

وقد حكى لنا القرآن قصة حضارات اندثرت عبر القرون والأيام ، وتلاشت وانتهي أصحابها بسبب أنها كانت حضارات مادية لا تعرف الأصول والمبادئ والأخلاق والمثل

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧ ٢٨ والميزان ١٤ ٣٨٦

العليا سبيلاً إليها بل حملها التقدم الحضاري في مختلف العلوم والفنون إلى الطغيان والظلم والبطش والتجبر في الأرض بغير حق كقوم عاد كما حكى القرآن : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ الشعراء : ١٢٨ -١٣٠.

## ويحكي القرآن عن ثمود:

(أتتركون في ماهنها آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) الشعراء :١٤٦ -١٤٩.

الطلع : اسم من الطلوع وهو الظهور، واصله ثمر النخل في أول ما يطلع.
والهضيم: اليانع النضيج، أو الرطب اللين
والمقصود : الامتنان عليهم بأجود ما يكون عليه ثمر النخل.
والنحت: البرى ، فارهين: حاذقين نحتها[1].

ويحكى القرآن ويصف بعض هذه الحضارات وأحوال أصحابها بقوله:
(ألم تر كيف فعل ربك بعاد أرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط العذاب إن ربك لبالمرصاد)[2].

---

(١) صفوة البيان ١١٢/٢.
(٢) (إرم) قبلة من عادة وهي بيت ملكهم، فهي بدل من (عاد) بدل بعض من كل.
(ذات العماد) صفة لقبيلة (إرم) أي ذات الأعمدة التي ترفع عليها بيوت الشعر إذ كانوا أهل خيام وعمد، وينتجعون الغيوث ويطلبون الكلأ حيث كان.
ثم يعودون إلى منازلهم، وقيل : ذا الرفعة والعزة . (لم يخلق مثلها) : صفة أخرى لها.
(وفرعون ذي الأوتاد) ذي الجنود والعساكر الذين يشدّون ملكه، كما تشدّ الأوتاد الخيام، وقيل لهم ذلك لكثرتهم وكثرة خيامهم التي يضربون أوتادها في معسكراتهم، أو ذي الأبنية العظيمة الشاهقة التي تشبه الجبال ، صفوة البيان ٥٣٧/٢.

والمعني: فانزل ربك على كل من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم وإكثارهم الفساد عذاباً شديدا متتابعا متواليا لا يوصف، فالله سبحانه رقيب يرقب أعمال عبادة حتى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب[١].

والفساد إخراج الشيء عن حد اعتداله الذي خلق لأجله وهو سوء حال الشيء ولحاق الضر به ضد الصلاح، وكان ما أكثروه من الفساد سبباً في غضب الله عليهم، والله لا يحب الفساد فصب عليهم العذاب.

والطغيان شدة العصيان والظلم ومعني طغيانهم في البلاد أن كل أمة من هؤلاء طغوا في بلادهم ولذلك تسبب عليهم ما فرع عنه من قوله ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ لأن الطغيان يجرئ صاحبه على دحض حقوق الناس، فهو من جهة يكون قدوة سوء لأمثاله وملائه، فكل واحد منهم يطغى على من هو دونه، وذلك فساد عظيم، لان به اختلال الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية الصالحة، وهو من جهة أخرى يثنى الحفائظ والضغائن في المطغى عليه من الرعية فيضمرون السوء للطاغين وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور وتربص الدوائر بها فيكونون لها أعداء غير مخلصين الضمائر، ويكون رجال الدولة متوجسين منهم خفية فيظنون بهم السوء في كل حال ويحذرونهم فتتوزع قوة الأمة على أفرادها بدلا أن تتحد على أعدائها فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل، وذلك يفضى إلى فساد عظيم فلا جرم كان الطغيان سببا لكثرة الفساد[٢].

وبذلك تنتشر العداوة والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة بسبب ما وقع فيها من الظلم وضياع الحقوق وكرامة الإنسان، وتتنحى الأصول والمبادئ والمثل العليا والقيم الأخلاقية عن المجتمع.

---

(١) الميزان ٢٠/٢٨١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٣٢١.

وقد بين الله أن الأمم إذا ابتعدت عن إقامة العدل وطاعة الله والالتزام بشرائعه ومنهجه المنظم لشئون الحياة جميعاً كانوا أهلا لعقوبة الله وانتقامه منهم بقوله تعالى﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ الإسراء : ١٦.

هذه الآية تهديد للكفار والمجرمين والعصاة والجبارين وتعليم للمسلمين.
والمعني: أن بعثة الرسول تتضمن أمراً يشرع وأن سبب إهلاك المرسل إليهم بعد أن بعث إليهم الرسول هو عدم امتثالهم لما يأمرهم الله به على لسان ذلك الرسول.

والترف : الترفه والتوسع في النعمة، قال بان عرفة : المترف المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع منه، وخص المترفين بالذكر لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وغير المترف يتبع المترف في فسقه عادة وأمر الله للمترفين بإقامة العدل والطاعة ، وإقامة المنهج الذي بينه لهم الرسل في جميع شئون الحياة، لأن الله تعالى لا يأمر بالمعصية امراً تشريعيا فهو القائل ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ٢٨ : الأعراف، ففسقوا وعصوا وبذلك تحقق ما لهلاكهم من الأسباب وهو كفران النعمة والطغيان بالمعصية والظلم أي : وإذا دنا وقت تعلق أرادتنا بإهلاك أهل قرية بعذاب الاستئصال لما اقترفوه من الظلم والمعاصي.

**أمرنا بالطاعة متنعميها وجباريها وقادتها ففسقوا فيها وتمردوا(١)**

وخلاصة معني الآية: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ونأمر مترفي قرية بما نأمرهم به على لسان الرسول فيفسقوا عن أمرنا فيحق عليهم الوعيد فنهلكهم إذا أردنا إهلاكهم)(٢).

وقد بين القرآن الدستور والنظام الذي يكفل صلاح الفرد والمجتمع في امتنا الإسلامية بقوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل.

---

(١) صفة البيان ٤٥٢/١ ، الميزان ٦٠/١٣.
(٢) التحرير والتنوير ٥٤/١٥.

ابتدأ سبحانه بهذه الأحكام الثلاثة التي هي بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني لما أن صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الإسلام في تعاليمه المصلحة، ولذلك اهتم في إصلاح المجتمع اهتماماً لا يعادله فيه غيره، وبذل الجهد البالغ في جعل الدساتير والتعاليم الدينية.

حتى العبادات من الصلاة والحج والصوم اجتماعية ما أمكن فيها ذلك ، كل ذلك ليستصلح الإنسان في نفسه ، ومن جهة ظرف حياته [1]

والعدل كلمة جامعة لمعني المماثلة والمساواة والاستقامة والتوسط . شاملة للعدل بين العبد وربه، بإيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه وامتثال أوامره واجتناب منهياته.

وللعدل بين العبد ونفسه ، بمنعها مما فيه هلاكها وفسادها ، وبذل النصيحة وترك الخيانة والإساءة إليهم، والصبر على الأذى.

ويتحقق العدل بالتوسط في كل الأمور، بين طرفي الإفراط والتفريط، اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير.

وبالعدل الإلهي قامت السموات والأرض والعدل خاصة هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ البقرة :١٤٣، أي عدو لا خياراً.

و(الإحسان) يطلق الإحسان على إتقان العمل وإكماله وعلى إيصال النفع إلى الخلق . وهو مصدر أحسن يحسن إحساناً ، فيقال: أحسنت كذا ، أي أتقنه وأكملته وأحسنت إلى

---

(١) الميزان ١٢/٣٣٠.

فلان: أي أوصلت إليه ما ينتفع به، وكلاهما مأمور به شرعاً (وينهي عن الفحشاء) أي ما عظم قبحه من الذنوب قولاً أو فعلاً.

(والمنكر) أي ما أنكره الشرع، وهو يعم جميع الذنوب والمعاصي.(والبغي)أي التطاول على الناس بالظلم والعدوان(١).

فهذه الأصول والقواعد والمبادئ والمثل العليا والأخلاق الفردية والجماعية التي قررها القرآن وطبقها النبي ﷺ وأصحابه في زمن النبوة والخلافة الراشدة فكتب الله لهم التمكين في الأرض، فمتى إلتزمت الأمة بمجتمعاتها المختلفة بهذه الأصول والمبادئ والأخلاق امتن الله عليها بالتمكين في الأرض ومتى أعرضت مجتمعاتنا الإسلامية عن جذورها الإيمانية ومبادئها القرآنية وأخلاقها الفردية والجماعية وتمسكت بالمبادئ المستوردة تسلط عليها أعداؤها وتخلفت عن ركب الحضارة وضاعت هيبتها وكرامتها بين الأمم، وقد حذرنا القرآن بأنباء الأمم السابقة من الوقوع في أسباب هلاكهم، فهذه سنة الله في الكون والحياة.

النبي يحث أمته على التحلي بمكارم الأخلاق

لأهمية الأخلاق الفردية والاجتماعية للأمة الإسلامية بيّن النبي ﷺ لأمته القيم الأخلاقية والمثل العليا بأفعاله وأقواله، ومن ذلك :

- ١ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:(لم يكن سول الله فاحشاً ولا متفحشاً) وإنه كان يقول(إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً).

(لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً) قال القاضي أصل الفحش الزيادة والخروج عن الحد قال الطبري الفاحش البذئ قال ابن عرفة: الفواحش عند العرب القبائح، قال الهروي: الفاحش ذو الفحش والمتفحش الذي يتكلف الفحش ويتعمده لفساد حاله قال وقد يكون

(١) صفوة البيان ٤٤٣/١.

المتفحش الذي يأتي الفاحشة قوله ﷺ:(إن من خياركم أحسانكم أخلاقاً) فيه الحث على حسن الخلق وبيان فضيلة صاحبه وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه قال الحسن البصري : حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه قال القاضي عياض: هو مخالطة الناس بالجميل والبشر والتودد لهم والإشفاق عليهم واحتمالهم والحلم منهم والصبر عليهم في المكاره وترك الكبر والاستطالة عليهم ومجانبة الغلظ والغضب والمؤاخذة.

هذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن النبي ﷺ كان يدعو أمته إلى المبادئ، والتحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق بسلوكه العملي، كما كان يدعوهم ويبين لهم بأقواله .

والأمة مأمورة بإقتفاء أثره وإتباع منهجه في الحالين والتأثير في الناس بالفعل أقوى أثراً وأبلغ موعظة من التأثير في الناس بالقول.

ورسول الله ﷺ ترك أمته على المحجة البيضاء بعد أن بيّن لهم كل ما ينفعهم، وترك لهم تراثاً عظيماً ومبادئ وقيماً عليا بأقواله وأفعاله، ومن ذلك أيضاً :

٢ - (اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[٢]
(واتبع السيئة الحسنة تمحها)

قيل: يُعلم منه أن العبد لا يستغني في حال من الأحوال عن محو آثار السيآت عن قبله بمباشرة حسنات تضاد آثار تلك السيئات، فسماع الملاهي يكفر بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، وشرب الخمر يكفر بالتصدق بكل شراب حلال وعلى هذا فقس لأن المرض يعالج بضده والمتضادات هي المتناسبات هي المتناسبات، لذلك ينبغي أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها لكي تضادها فالبياض يزال بالسواد لا بغيره، وحب الدنيا اثر السرور بها في القلب، فلا جرم كفارته كل أذى يصيب الملم منالهم والغم.

هذا الحديث يربي في الإنسان مراقبة الله في السر والعلانية ويجعل الخوف من الله الذي استقر في قلب المسلم هو المسيطر، والمتحكم في أعماله وتصرفاته وهذا ما يشير إليه قوله (اتق الله حيثما كنت) فإذا ضعف الإنسان أمام شهواته ورغباته، وغواية الشيطان له فوقع في المعاصي فلم يغلق الله في وجهه باب التوبة بل أمره بالرجوع إلى الله نادماً تائباً وأرشده إلى ما فيه صلاح حاله بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ ١١٤ هود.

وهذا ما أكده النبي بقوله ( واتبع السيئة الحسنة تمحها)والإسلام بهذا المنهج يجعل علاج الغفلة التي يقع فيها المسلم بالمعصية هي نشر الخير وزيادة عمل الصالحات في المجتمع الإسلامي، ثم يصنع الرسول قاعدة ومبدأ التعامل بين الفرد والجماعة في الأمة الاسلامية بقوله: ( وخالق الناس بخلق حسن)ولعل هذا ما يشير اليه قوله تعالى ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ٨٣ : البقرة.

والقرآن بهذا المنهج يجعل الأخلاق عنوان الأمة وصفتها فعلاقات الناس في المجتمع المسلم تحكمها مبادئ اخلاقية وعلاقات المسلمين بغيرهم ممن لايدينون بالاسلام تحكمها ايضاً قواعد ومبادئ الاخلاق التي قررها القرآن وبينها رسول الله ﷺ لأمته بأقواله وأفعاله، فإن خالف سلوك بعض المسلمين اليوم مبادئ الأخلاق في الإسلام فليس العيب في هذا الدين العظيم. وإنما العيب في تصرفات هؤلاء. وضحالة تفكيرهم وسوء فهمهم لمنهج القرآن وهدي رسول الله ﷺ فهم بسوء أخلاقهم وصنيعهم لا يعبرون عن الإسلام عند المنصفين من عقلاء البشر وإنما يعبرون عن أنفسهم وسوء أحوالهم ؟ ومن المعلوم لدي العلماء أن من أمراض الأمة الإسلامية اليوم الفصل بين المبدأ والسلوك أو بعبارة أخرى أو بعبارة أخرى بين المبادئ التي قررها القرآن وجاء بها الإسلام وبين سلوكيات الناس وتصرفاتهم في عالمنا الإسلامي اليوم.

٣- وعن أبي الدرداء. عن النبي ﷺ قال ( إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن. وإن الله يبغض الفاحش البذئ ) حديث حسن صحيح. [١]

في هذا الحديث يرغب النبي ﷺ في التزام المسلم بمحاسن الأخلاق جميعاً حتى تكون روح الفضيلة هي صفة المجتمع الإسلامي، ويبين الرسول ﷺ في هذا الحديث منزلة تسمك التزام المسلم والمسلمة بمكارم الاخلاق في الدار الآخرة: وان الاخلاق الحسنة ترفع صاحبها في الدرجات العلي من الجنة ولا شك أن نفس كل مسلم ومسلمة يؤمن بالله واليوم الآخر يجب بل يعمل عملاً جاداً دؤوباً على رفع منزلته في جنات النعيم ثم يبين الرسول ﷺ لأمته أن مساوئ الاخلاق تجعل صاحبها محلاً لسخط الله وبغضه ومن كان بهذه الصفة كان أهلاً لانتقام الله منه في الدنيا والآخرة.

٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ( إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار) [٢] في هذا الحديث يبين النبي ﷺ اثر الأيمان الصادق في تغيير سلوك صاحبه، فهو يحمل على التخلي عن الرذائل ومساوئ الاخلاق، ويحمل على التحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق حتى يصل بمجاهدة النفس على التمسك بالمبادئ الأخلاقية الى درجة قائم الليل وصائم النهار وفي الحديث دلالة على أن حسن الخلق يرفع منزلة صاحبه في الدرجات العلي من الجنة، والنبي ﷺ بهذه التوجيهات يربي امته افراداً وجماعات علي أن يكون حسن الخلق صفة المسلم، وعنواناً للأمة الإسلامية.

ويحذر النبي ﷺ الأمة الإسلامية افرداً وجماعات من عاقبة مساوئ الأخلاق في الدار الآخرة لو سيطر هذا السلوك السيء على تصرفات المسلم والمسلمة في حياته اليومية أثناء معاملاته مع الناس، فهو بهذا يضيع آخرته، ويبدد حسناته التي أعطاها الله له ثواباً على أعماله الصالحة في الدنيا من صلاة وزكاة وصيام وحج الى غير ذلك من أعمال.

فعن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال: اتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته. وهذا

من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار.[١]

ففي هذا الحديث يوجه النبي ﷺ أمته الى مجاهدة النفس، وعلاجها من أمراض مساوئ الأخلاق وجميع رذائل الأعمال ثم بمجاهدة النفس في التحلى بالفضائل ، ومكارم الاخلاق وذلك قبل أن يفلس المسلم أو المسلمة في الدار الآخرة ، بوقوع المقاصّة بين الناس في الحسنات والسيئات.

# المبحث السابع

## الإنسان بين السمو والانتكاس في ضوء سورة التين

ويشتمل على :

- ❖ أقوال المفسرين في المراد بالتين والزيتون وتعليل القسم بها.
- ❖ خلق الإنسان في أحسن تقويم.
- ❖ صور من انتكاس الإنسان (أسفل سافلين)

# الإنسان بين السمو
# والانتكاس في ضوء سورة التين

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ ١ -٨ سورة التين.

أقسم الله بهذه الأشياء ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ .

والقسم في القرآن الكريم يأتي لفوائد منها:

(١) بيان ما للمقسم به من أهمية مثل القسم بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين، حيث تشير هذه الأقسام إلى منازل لبعض الأنبياء والمرسلين، وتشرف الأماكن بشرف من فيها.

والتين يذكرنا بعهد آدم عليه السلام حيث استعان هو وحواء بورق التين حين أغراها إبليس بالأكل من الشجرة والزيتون يذكرنا بعيسي عليه السلام وطور سنين عهد موسي ، والبلد الأمين مكة حيث بعث الرسول ﷺ.

(٢) لفت الأنظار لبدائع صنع الله كأسرار قدرة الله في خلق عالم النبات وتكوينه حيث يسقى النبات بماء واحد فيخرج مختلف الألوان والأشكال والطعم والرائحة والفوائد، ومن هذا نبات التين والزيتون، فيستحيل أن يوجد عالم النبات دون خالق له.

(٣) تنبيه السامع حتى يصغي إلى المتكلم، ذلك أن المتكلم شرع في القسم، وثق السامع أنه سيضمن كلامه أمرا خطيراً، فيصغي إليه، ويدرج الدليل في صورة قسم ، فتتم الحجة على المعاندين.

(٤) يأتي القسم لتأكيد الخبر وتقريره ، وتلك عادة كانت عند العرب، الذين كانوا يقطعون كلامهم بالقسم ، يقول السيوطي :( القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده) والخبر هنا هو خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وتكريمه بهذا الخلق والإيجاد ، ثم رده إلى أسفل سافلين جزاء وفاقا على عمله.

(٥) القسم يزيل تردد المخاطب وإنكاره ، لأن السورة تثبت البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال بالجنة أو النار ، وبعض النفوس البشرية في العرب وغيرهم كانت تكذب بقضية البعث والحساب بعد الموت.

(٦) ويأتي القسم لاثبات وحدانية الله ذاته وصفاته وأفعاله، وانفراده سبحانه بالخلق والإيجاد ، وفي السورة الكريمة: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .[١]

(٧) وإطالة القسم بـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ تشويق الى المقسم عليه.

## أقوال المفسرين في المراد بالتين والزيتون وتعليل القسم بها

(١) ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بالتين والزيتون : الثمرة أي نبات التين والزيتون بدليل ظاهر النص القرآني بدليل ظاهرة النص القرآني بالتين والزيتون الثمرة: أي نبات التين والزيتون ومن هؤلاء عبدالله بن عباس في أحد قوليه ، ومجاهد ابن جبر والحسن البصري، وعكرمة البربري، والنخعي، وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي[1].

ونبات التين من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعمله وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات مع الايذان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج.

والزيتون : ظاهره أيضاً الثمرة المشهورة ذات الزيت الذي يعتصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به.

والقسم بها كالقسم بالتين من حيث انها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.

وأقسم الله بها على هذا المعني وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٣٠، الدرر المنثور للسيوطي ٨، والبحر المحيط ٤٨٩/٨.

قلت: وفي القسم بالتين والزيتون إشارة إلى أسرار القدرة الإلهية في خلق عالم النبات وما يشتمل عليه من بديع صنع الله، فعالم النبات توضع بذوره في الأرض ويسقي بماء واحد فيخرج مختلف الألوان والأشكال والطعم والرائحة والفوائد وفي عالم النبات دلالة وإشارة على قدرة الله على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للجزاء والحساب لأن القادر على إحياء الأرض بعد موتها بالنبات قادر على إحياء الناس بعد موتهم للجزاء والحساب وفي السورة الكريمة (فما يكذبك بعد بالدين)والدين هو الجزاء على الأعمال، والقرآن يستدل على صحة والدين هو الجزاء على الأعمال، والقرآن يستدل على صحة العقائد الغيبية (كالبعث بعد الموت والجزاء والحساب) بآيات الله الكونية وقد رجح أبو حيان القول السابق بيانه بدلالة ظاهر النص، واختاره الشوكاني في فتح القدير وعاب على من ذهب إلى القول بغير هذا الرأي فقال ( وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعدول الى هذه التفسيرات البعيدة عن المعني، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل)[1].

(٢) وذهب جماعة من المفسرين إلى أن المراد بالتين والزيتون موضعا نباتها في أرض الشام وغيرها، ومن هؤلاء عبد الله بن عباس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي[2] بدلالة سياق الآيات فإن المناسب لذكر طور سنين والبلد الأمين أن يكون المراد بالتين والزيتون موضعا نباتها في أرض الشام والعرب يسمون الموضع باسم ما ينبت فيه كثيراً كالغضا والشجر والنخلة، وليس ذلك خروجاً عن أصل المعنى، وإنما هو استعمالها في بعض وجوهها بطريق تسمية الظرف بالمظروف.

(١) البحر المحيط ٤٨٩/٨، فتح القدير ٦٦٩/٥.
(٢) انظر فتح القدير للشوكاني ٩٦٦/٥ ، والبحر المحيط ٤٨٩/٨.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: التين بلاد الشام والزيتون بلاد فلسطين ، وطور سنين الذي كلم الله عليه موسي وهذا الذي كلم الله عليه موسي وهذا البلد الأمين مكة[١]

وعن ابن عباس ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ قال : مسجد نوح الذي بني على الجوديّ ، والزيتون قال: بيت المقدس[٢]

وعلى ما تقدم ذكره من المحملين الثانيين للتين والزيتون تتم المناسبة بين الأيمان، وتكون إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر، فالتين ايماء الى رسالة نوح وهي أول شريعة والزيتون ايماء الى مكان شريعة عيسي عليه السلام لأن المسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام ولم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسي.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام فإن الإسلام جاء على أصول الحنفية وبذلك يكون إيماء هذه الآية ما صرح به في قوله تعالي ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ ١٣ :الشوري.

وبذلك يكون ترتيب الإيماء إلى شرائع نوح وموسي وعيسي ومحمد عليهم الصلاة والسلام غير جار على ترتيب ظهورها فتوجيه مخالفة الترتيب الذكري للترتيب الخارجي أنه لمراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثمرتين ومقارنة الأسمين الدالين على نوعين من أماكن الأرض[٣].

(١) فتح القدير ٦٧١/٥.
(٢) المصدر السابق ٦٧١/٥.
(٣) التحرير والتنوير ٤٢٢/٢٠.

والإشارة بالأمور المقسم بها الى أطوار الشرائع الأربعة إيماء إلى أن الإسلام جاء مصدقا لها وإنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام[١].

وأما ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ فهو الجبل المعروف بـ(طور سينا) والطور: الجبل بلغة النبط وهم الكنعانيون.

وعرف هذا الجبل بـ ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ لوقوعه في صحراء سينين ، و﴿ سِينِينَ ﴾ لغة في سيناء وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين. فالطور هو الجبل الذي نال عليه إنسان وهو موسى عليه السلام النبوة، وتشرف بكلام الله سبحانه وتعالى وشهد تجليات الله.

والبلد الأمين: مكة المكرمة، سمي الأمين لأن من دخله كان آمناً، وهي البلد التي تشرف فيها إنسان آخر وهو - الآخر -بالرسالة والنبوة.

والإشارة إليه للتعظيم ولأن نزول السورة في ذلك البلد فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين[٢].

ويوفق ابن عاشور بين الرأيين السابقين في المقصود بالتين والزيتون بهذه العبارة:
(ويجوز عندي أن يكون القسم بـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ معنياً بها شجر هاتين الثمرتين، أي اكتسب نوعاهما شرفاً من بين الأشجار يكون كثير منه نابتاً في هذين المكانين المقدسين..)[٣]

أقول: ومن المعلوم أن أرض الشام مهد النبوة والأنبياء ومنبتهم، ومهبط الوحي والملائكة، وموطئ أقدام أولي العزم من الأنبياء والصالحين من عباد الله من البشر وبلاد

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٠.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢١ -٤٢٢.
(٣) المصدر السابق ٢٠/٤٢١.

الشام أرض شهدت منن الله ونعمه على الإنسان واصطفائه إياه، وهي شاهد على ما خص الله به الإنسان من نعم، وخلقه في أحسن تقويم خَلقاً وخُلقاً.

فكل هذه الأمكنة الطاهرة تشهد بمزية الإنسان واعتدال طبيعته واستعداده لأكبر مهمة وحمل أمانة النبوة، والنبوة لا يليق لها إلا المعتدلون في الخَلق والخُلق.

والأنبياء يكونون أحسن الناس وأعدلهم وأوسطهم خَلقاً وخُلقاً، وهم من هذا النوع الذي يقال له الإنسان، فتشهد هذه المواضع بلسان حالها بصدق قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

وفي ابتداء السورة بالقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعة استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركاً لأدلة وجود الخالق ووحدانيته وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من الملل والنحل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها بقطع النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تقوّم معنى براعة الاستهلال ما يلوح في المعنى من احتمال[1].

(١) التحرير والتنوير ٤٢٢/٣٠.

# خَلْق الإنسان في أحسن تقويم

لمراد بالإنسان: عموم الناس، وذكر الإنسان على وجه التكثير لأنه وصفه بما يعم لجميع الناس والمراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم:

- في أعدل خلق.
- في أحسن صورة ، مكتمل الحواس.
- منتصب القامة، رأسه إلى أعلى، على عكس الحيوان فرأسه إلى أسفل يتناول مأكوله بيده.
- في شباب وقوة.
- في أكمل عقل، لأن تقويم حياة الإنسان بعقله[١].

فقد خص الله الإنسان، وميزه بالعقل والإدراك والتمييز[٢]، مزين بالعلم والفهم والنطق والأدب، فهو أحسن بحسب الظاهر والباطن[٣].

قال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً ، عالماً، قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً ، وهذه صفات الرب سبحانه، وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ (إن الله خلق آدم على صورته)[٤] يعني على صفاته التي تقدم ذكرها.

قلت: وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ :الشورى. وقوله :﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ ١١٠ :طه.

---

(١) انظر النكت والعيون ٣٠١/٦ -٣٠٢.
(٢)انظر البحر المحيط ٤٩٠/٨.
(٣)انظر حاشية الجمل ٤ / ٥٥٨ ، وانظر بدائع التفسير لابن القيم ٢٧٠/٥ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١٤/٢٠
(٤)البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم ٢٠١٧/٤.

**-العقل المدرك والفطرة المستقيمة:**

والتقويم : جعل الشيء في قوام ، أي عدل وتسوية ، وحسن التقويم أكمله وأليقه بنوع الإنسان، أي أحسن تقويم له، وهذا يقتضي أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات، ويتضح ذلك في تعديل القوى الظاهرة والباطنة بحيث لا تكون أحدى قواه موقعة له فيما يفسده ، ولا يعوق بعض قواه البعض الآخر عن أداء وظيفته فان غيره من جنسه كان دونه في التقويم.

فأدت الآية أن الله كوّن الإنسان تكويناً ذاتياً متناسباً ما خلق له نوعه من الإعداد لنظامه وحضارته وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله تعالى ولا جديراً بأن يقسم عليه إذ لا أثر له في إصلاح النفس، وإصلاح الغير، والإصلاح في الأرض ولأنه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين . وإنما هو متمم لتقويم النفس قال النبي ﷺ: ( إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[1] فإن العقل أشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع.

فالمرضيّ عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح لأن العقل هو المحرك والآمر للجسد بالعمل وهذا من مقاصد السورة،ويدلنا على ذلك مجئ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعد بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم، لأن الإيمان أثر التقويم لعلق الإنسان الذي يلهمه السير في أعماله علي الطريق الأقوم، ومعاملة بني جنسه معاملة حسنة.

والذي تأخذه من هذه الآية أن الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع ليتصف بآثارها ، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكاً مستقيماً مما يتأدى من المحسوسات الصادقة وما يتلقاه العقل السليم من ذلك ويتصرف فيه

---

(١) أخرجه مسلم.

بالتحليل والتركيب المنتظمين، بحيث لو جانبته التلقينات الضالة والعوائد الذميمة والطبائع المنحرفة والتفكير الضار، أو لو تسلطت عليه تسلطاً ما، فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحق والصواب، لجرى في جميع شؤونه على الإستقامة، ولما صدرت منه إلا الأفعال الصالحة ولكنه قد يتعثر في ذيول اغتراره ويُرخى العنان لهواه وشهوته، فترمى به في الضلالات، أو يتغلب عليه دعاة الضلال بعامل التخويف أو الإطماع فيتابعهم طوعاً أو كرهاً ثم لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلده فيعتاده وينسى الصواب والرشد.

ويفسر هذا المعنى قول النبي ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثم يكون أبواه اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) الحديث ذلك أن ابويه هما أول من يتولى تأديبه وتثقيفه وهما أكثر الناس ملازمة له في صباه.

فإذا سلم من تضليل أبويه فقد سار بفطرته شوطاً ثم هو بعد ذلك عُرضة لعديد من المؤثرات فيه ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

واقتصر النبي ﷺ علي الأبوين لأنها أقوى أسباب الزج في ضلالتهما ، وأشد إلحاحاً على ولدهما.

ولا يلائم مقصد السورة إلا أن يتأول بأن ذلك ذكر نعمة على الإنسان عكس الإنسان شكرها فكفر بالمنعم فرد أسفل سافلين.

وتفيد الآية أن الإنسان مفطور على الخير وأن في جبلته جلب النفع والصلاح لنفسه وكراهة ما يظنه باطلاً أو هلاكاً[1].

(١) التحرير والتنوير ٤٢٥/٣٠ -٤٢٦.

**- الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح:**

يرى بعض المفسرين أن تقويم الإنسان بالإيمان والعلم النافع والعمل الصالح وهذا هو المناسب لإشارة السورة إلى طور سيناء، وهو المكان الذي اصطفى الله فيه موسى عليه السلام، وإلى البلد الأمين المكان الذي اصطفى الله فيه خاتم المرسلين ﷺ، وحياة الأنبياء ودعوتهم كانت للإيمان والعلم النافع والعمل الصالح وهذه الثوابت والمبادئ ترقى بالإنسان إلى أعلى عليين، فإن أعرض عنها انتكس بعمله إلى أسفل سافلين.

فإذا آمن بما علم وزاول صالح العمل رفعه الله إليه كما قال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ ﴾ ١٠ :فاطر، وقال: ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ٣٧ :الحج.

وقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ١١ :المجادلة.
وقال: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ ٧٥ :طه.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الإنسان وارتقائه بالإيمان والعمل الصالح عطاء من الله غير مجذوذ[1].

أقول: ولعل المدلول اللغوي لكلمة التقويم يتسع لجميع هذه المعاني، لأن التقويم في اللغة: التعديل والتثقيف.

قال السمين: (تقويم الشيء تثقيفه ، وأشار تعالى بذلك إلى ما عليه الإنسان دون سائر الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامة، وتناول المأكولات والمشروبات بيديه، واستيلائه على كل ما في هذا العالم والتصرف فيه)[2].

---

(١) الميزان ٢٠/٢٢٠.
(٢) عمدة الحفاظ ٤١٨/٢ ، المفردات للراغب / ٦٣١.

وفي المعجم التقويم .التعديل، فهو مصدر قوّم الشيء بمعني عدّله وأزال ما فيه من عوج أو إلتواء أي في حالة هي أحسن حالات التعديل والتهذيب، فقد خصه الله تعالى بانتصاب القامة ومتانة الأعصاب وجودة التفكير، وحسن البيان، وقوة الإرادة وغير ذلك من صفات الإنسان المحمودة[1].

ولعل القول القائل بأن المراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم هو العقل المدرك والفطرة المستقيمة وكذلك القول بأن المراد الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح هما الأقرب لمقاصد السورة الكريمة مع ملاحظة أن القولين متقاربان في المعنى، لأن الإيمان فطري يقول تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٠ :الروم.

ولا شك أن دعوة الرسل تخاطب العقل المدرك الراشد وفي القرآن آيات كثيرة تأمر بالتدبر الأمثل في آيات الله الكونية وآيات الله القرآنية والنظر والتأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات في الإنسان والحيوان والنبات إلى غير ذلك من بديع صنع الله.

فهذه الكائنات البديعة الصنع، والتي تعمل بنظام محكم دقيق لها خالق صنعها وأوجدها على غير مثال سابق، أخبرنا الرسل بأنه الله - سبحانه وتعالى - وبأن الدنيا ليست نهاية المطاف، وبأن هناك حياة أخري بعد الموت يبعث الناس من قبورهم للجزاء والحساب فمن صدق الرسل وآمن بالله والدار الآخرة وعمل ...وعمل صالحاً كان من الناجين الفائزين، ومن أعرض عن الإيمان بالله ، أو عن الاستعداد لليوم الآخر بالعمل الصالح انتكس إلى أسفل سافلين فحال الرسل المنذرين كحال رجل صادق أخبرنا بأن أسداً يقف في آخر الطريق فصدقه بعض الناس وأخذوا كلامه على محمل الجدّ فأجتنبوا السير في هذا الطريق، وكذبه آخرون ففوجئوا بالأسد أمامهم، وعندئذ أيقنوا بالهلال.

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ٤٥٢/٢.

فهذا مصير من أعرض عن الإيمان بالله واليوم الآخر، ولم يستعد في الدنيا بالعلم النافع، والعمل الصالح، فإذا به بعد الموت يفاجئ بالبعث والنشور، والجنة والنار والصراط والميزان، فعندئذ يندم ويوقن بالهلاك ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ٢٧ : الفرقان.

ولا شك أنه لا نجاة للإنسان في الدار الآخرة من النار، ولا رقيّ له في الدرجات العلى من الجنة إلا بالإيمان والعلم النافع والعمل الصالح.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾

- أي رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة حتي يصير كالصبي فينحرف وينقص عقله.[1] حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله، وأبيض شعره بعد سواده وتشتت جلده وكان بضاً، وكلَّ سمعه وبصره وكانا حديدين[2] وضعف تمييزه بعد قوته، وذهل عقله[3] حتى يصير لا يعلم شيئاً بعد تغيير كل شيء فيه.

أما المؤمن فمرفوع عنه القلم، والاستثناء، على هذا منقطع.

فقطع: أي لكن الذين آمنوا الخ، ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى[4].

وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا بل في الجنس من يعتريه ذلك[5].

أقول: وفي رد الإنسان إلى أرذل العمر دليل على قدرة الله على البعث، وإحياء الموتى من قبورهم للجزاء والحساب، وذلك لأن الذي قدر على رد الإنسان إلى حالة الطفولة مرتين في

(١) فتح القدير ٥/٦٧٠.
(٢) البحر المحيط ٨/٤٩٠.
(٣) انظر النكت والعيون ٦/٣٠٢.
(٤) فتح القدير ٥/٦٧٠.
(٥) البحر المحيط ٨/٤٩٠.

حياته، مرة في صباه، ومرة بعد شيخوخته وكبره، قادر على بعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء.

- أو رددناه أسفل سافلين يعني الكافر في النار على كفره.

المعنى: ثم رددنا الكافر إلى النار وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السالبة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ١٤٥ :النساء:

فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل، وقوله :(أسفل سافلين) إما حال من المفعول: أي رددناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمقدر محذوف: أي مكاناً أسفل سافلين[1].

وقد اختار هذا القول ورجحه الإمام ابن القيم - رحمه الله[2].

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي : لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي رُكب الإنسان عليها طغى وعلا، حتى قال:﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ٢٤ :النازعات، وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رده أسفل سافلين بأن جعله مملوءاً قذراً، مشحوناً نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكراً، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره.

- وقد قيل:

أي رددناه إلى الضلال[3]

---

(١) فتح القدير ٥/٦٧٠.

(٢) بدائع التفسير ٥/٢٧١.

(٣) (٣) ، (٤) أنظر تفسير القرطبي ٢٠/١١٥ ، وعمدة الحفاظ ٢/٢٣٣.

- يطلق الرد مجازاً على تصيير الشيء بحالة غير الحالة التي كانت له مجازاً مرسلاً و﴿ أَسْفَلَ ﴾ اسم تفضيل ، أي أشد سفالة، وأضيف إلى﴿ سَٰفِلِينَ ﴾ أي الموصوفين بالسفالة.

فالمراد: ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ في الاعتقاد بخالقه بقرينه قوله﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .

وحقيقة السفالة: انخفاض المكان، وتطلق مجازاً شائعاً على الخسة والحقارة في النفس، فالأسفل الأشد سفالة من غيره في نوعه.

والسافلون: هم سفلة الاعتقاد، والإشراك.

أسفل الإعتقاد فيكون ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ مفعولاً ثانياً لـ ﴿ رَدَدْنَٰهُ ﴾ لأنه أجرى مجرى أخوات صار والمعنى: أن الإنسان أخذ بغير ما فطر عليه من التقويم وهو الإيمان بإله واحد، وما يقتضيه ذلك من تقواه ومراقبته فصار أسفل سافلين، وهل أسفل ممن يعتقد إلهية الحجارة والحيوان الأبكم من بقر وتماسيح أو ثعابين أو من شجر السُمر .أو من يحسب الزمان إلهاً ويسميه الدهر، أو من يجحد وجود الصانع وهو يشاهد مصنوعاته ويحس بوجود نفسه قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فإن ملت إلى جانب الأخلاق، رأيت الإنسان يبلغ به انحطاطه إلى حضيض التسفل، فمن قلق إذا طمع ، ومن شح إذا شجع، ومن جزع إذا خاف، ومن هلع ، فكم من نفوس جعلت قرابين للآلهة، ومن أطفال موءودة ، ومن أزواج مقذوفة في النار مع الأموات من أزواجهن ، فهل بعد مثل هذا من تسفل في الأخلاق وأفق الرأي[1]

ولعل المدلول اللغوي لقوله: ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ يتسع لكل هذه المعاني التي ذكرها المفسرون في تفسير الآية

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٨، ٤٢٧.

تقول اللغة: سَفَلَ يَسفُل سَفالاً وسُفُولاً: نقيض عَلا عَلاءً وعُلواً، فهو سافل وهم سافلون وأفعل التفضيل منه أسفل، وجمعه الأسفلون، ومؤنثه السفلى.

ويستعمل في الانحطاط الحسي والمعنوي، أي ثم صيرناه بسبب سوء تصرفاته وبعده عن الفطرة السليمة أرذل المنحطين من أنواع الحيوان[1].

ولعل أقرب الأقوال لمقصود السورة قول من قال بانتكاس بعض أفراد الإنسان عن الفطرة السليمة بالكفر والضلال تارة وبالفسوق والعصيان والفساد في الأرض والانحراف عن منهج الله وهدى الرسل تارة أخرى، يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ٢١١ :البقرة.

هدد كل من يغير نعم الله وسننه، فقال: ومن يغير نعمة الله - كفطرة الإنسان على الدين الحق وكالأدلة والبراهين الدالة على الحق والخير والهداية، من بعد ما وصلت إليه وعرفها، ويجعلها من أسباب ضلاله وكفره وعصيانه، فله العذاب الشديد والعقاب الصارم، والجزاء المحتم[2].

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ٥٩٤/١ ، المفردات (٣٤٢).
(٢) التفسير المنير ٢٣٧/٢.

## صور من انتكاس الإنسان
## ( أسفل سافلين )

هذا الجنس البشري الذي كان منه محمد وعيسى وموسى والنبيون والصديقون والشهداء والصالحون، الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ ٦٩ : النساء.

وقال جل ذكره عنهم:
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ : ٩٠الأنعام

هذا الجنس البشري انحطّ كثير من أفراده بأعمالهم بسبب بعدهم عن منهج الله، وهدى رسله ودينه الحق، حتي صاروا أرذل من الحيوانات المفترسة والحشرات والعجماوات، والبهائم بل فقدوا الإحساس الإنساني حتى أصبحت قلوبهم أشد قسوة من الجمادات فكان منهم من نازع الله سبحانه في صفاته العليا، كالنمروذ الذي حاج إبراهيم في ربه، فقال:﴿ أَنَا أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ ٢٥٨ :البقرة.

بل كان منهم من تجاوز بطغيانه وجبروته كل حد، فادّعى الإلوهية كفرعون فقال: ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ ٣٨ :القصص.

ومنهم من قلب الفطرة، ومسخ الإنسانية وغيّر خلق الله حتى صار من رؤوس شياطين الإنس الذين يتبعون إبليس وجنوده فيما يأمرهم به ويزينه لهم من أعمال الشر والخراب.

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ ١١٩ :النساء.

والمعنى : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أي لأزيغنهم عن طاعتك وتوحيدك، ولأُلقينّ في صدورهم الأماني الباطلة الميسرة للعصيان. ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ أي فليقطعنّها من أصلها أو ليشقنها، من البتك وهو القطع، وكانوا في الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً قطعوا أذنها أو شقوها شقاً واسعاً، علامة على أنهم حرموا على أنفسهم الانتفاع بها وجعلوها للطواغيت، وسموها البحيرة، أي المشقوقة الأذن . والمراد: أنه يُغريهم بعبادة الطواغيت، ويدعوهم إلى التقرب إليها بالبحائر ونحوها... فيسارعون إلى إجابته.

﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي فليغيّرنّ ما خلقه الله عن نهجه صورةً وصفةً ، كفقأعين فحل الإبل في بعض الأحوال وخصاء الإنسان والوشم، واللواط والسحاق والتخنث ، وعبادة الكواكب والنار والأحجار، وتغيير دين الله وأحكامه[1].

وقدق نسى الإنسان عداوة الشيطان فأتبع وساوسه، وجميع ما زينه له من أنواع الضلال والكفر، والفسوق والعصيان، والظلم والطغيان والتجبر في الأرض، يقول تعالى:
﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ ٢٠ :سبأ.

أي حقق عليهم إبليس بطاعتهم له وعصيانهم ربهم ما كان يظنه ظناً، من أنهم بإغوائه إياهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله[2] وما كان لإبليس وجنوده سلطان عليهم إلا

(١) صفوة البيان ١/١٧٠.
(٢) صفوة البيان ٢/١٩٨.

الوسوسة والإغواء والتزيين، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ ٢٢ :إبراهيم.

وقد حذر الله سبحانه وتعالى الإنسان من عداوة الشيطان،وأمره أن لا يستجيب لوساوس الشيطان، وغوايته وإضلاله وحيله وألاعيبه، وتزيينه للباطل لبني آدم يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ٦ :فاطر.

ويعتو الإنسان في الضلال والطغيان كان من هذا الجنس البشري من اخترع من أنواع الجرائم، وابتدع من المآثم ما لا يخطر على قلب بهيمة وسبع.

ولا يزال من البشر من يبتكر أنواعاً من أساليب القتل والفتك بالإنسان، وآلات الدمار الشامل، والهلاك ، والغازات السامة الجرثومية، والسموم القاتلة.

وجعلوا هذه الصناعات المتقدمة المتطورة والتي بإمكانها تدمير البشرية جمعاء قاصرة على الدول الكبري المالكة لأسلحة الدمار الشامل حتى تهيمن وتسيطر نفوذها على دول العالم جميعاً، بل تعمل هذه الدول المالكة لأسلحة الدمار الشامل على خنق غيرها من الدول اقتصادياً، وسلب خيراتها وثرواتها الطبيعية التي وهبها الله لها.

وصدق الله إذ يقول في وصف طائفة من بني الإنسان:
﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ ٢٠٥: البقر.

وقد أمر الله البشرية جمعاء أن تتعاون على توازن القوى، وذلك حتى لا تهيمن وتسيطر وتنفرد دولة من الدول بسبب قوتها على مجريات الأمور والأحداث في العالم، ونظرية توازن القوى قررها القرآن في قوله جل ذكره: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ

ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ٢٥١ : البقرة.

فلو لا دفع الله أهل البغي والشر بأهل العدل والإصلاح والخير، وتسليط جماعة على أخرى، لغلب أهل الفساد وفسدت الأرض وعمت الفوضى، وساد الظلم[1].

وحتى لا تقع الأمة الإسلامية تحت وطأة الذل والهوان والاستعباد باحتلال أراضيها، واستيلاء أعدائها على خيراتها وثرواتها الطبيعية من الطغاة الجبارين من البشر من أعداء أمتنا الإسلامية ، أمر الله أمة الإسلام بإعداد القوة المناسبة لكل عصر مبيناً لها هذه الحقيقة الثابتة (الاستعداد للحرب بإعداد القوة المناسبة يمنع وقوع الحرب) يقول تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ : ٦٠ الأنفال.

ولما تهاونت أمتنا في إعداد القوة المناسبة لكل عصر وقعت تحت ذل الاحتلال وبطش الأعداء إلى قرابة منتصف القرن العشرين، وها هم أعداء الأمة يعودون إلى احتلال أراضيها من جديد.

ثم تأمل أيها العاقل المنصف ما في الدول الأوروبية من انحلال أخلاقي، وتمرد على القيم والمبادئ والدين، والأعراف البشرية حتى صارت المرأة سلعة رخيصة في هذه المجتمعات بعريها، وسفورها، وأكلها بعرضها، وأقرت هذه الدول قوانين تنظيم الشذوذ الجنسي بكل أنواعه، وباركت الكنيسة الأوروبية هذه القوانين ، وصارت تعقد عقود الزواج بين الشواذ من الجنسين بل دعت دول أوروبا العالم الإسلامي تحت شعار الحرية إلى إطلاق حرية المرأة المسلمة حتى تصبح تحت هذا السمى صورة طبق الأصل من المرأة الأوروبية.

---

(١) التفسير المنير ٢/٤٣٠.

وقد بلغ هذا الإنسان من قساوة القلب وضراوته ببني جنسه - خصوصاً إنسان القرن العشرين - ما لم يبلغه سبع ولا حشرة ولا يصدق هذه الآية(ثم رددناه أسفل سافلين) ولا يؤمن بها إلا من قرأ تاريخ الإنسانية بعامة، وتاريخ الدول الأوروبية بخاصة وما فيها من عظائم الأحداث، واحتلالها لكثير من بلدان العالم، وبذلك يعلم العاقل المتصف أن الحيوان لم يعد مضرب المثل فيما تنسب إليه ونستقبحه.

فالإنسان في كل زمان ومكان إذا انحرف عن فطرته، وانحط من مقامه فمعاذ الله من شره، فلا تكون الحية والعقرب أشد إيذاءً وخطراً منه، ولا الذئب في الغنم بأخوف وأفسد منه، ولا القردة والخنازير أشد خلاعة وفجوراً منه.

وهذه الأنواع التي ضربناها مثلاً لا تحط عن مقامها ولا تخرج عن فطرتها، وانما هي تفعل كل ما تفعل بسائق الفطرة التي فطرت عليها، ولا عتاب على الفطرة ولكن الإنسان يمسخ فطرته ويقلب طبيعته.

ثم استثنى الله - إنصافا منه - الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقد حافظوا على ما رزقهم الله من فطرة طاهرة زكية، وداوموا العمل على تزكية أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: ما يحملك على التكذيب بالجزاء على الأعمال، مع أنك شاهدت مظاهره في هذه الحياة، فهو قانون العدل الإلهي فرأيت أيها الإنسان كيف يرقى الإنسان بعمله وجهاد نفسه إلى صفوف الملائكة بطاعته، فكيف لا يجازي هذا التقي النقي على ا قدمت يداه، ثم رأيت كيف ينحط بعض الإنسان بعمله حتى يصير أسفل سافلين، فكيف لا يعاقب الله الطغاة المجرمين.

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ٣٥ -٣٦: القلم.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في معاملته مع الإنسان حسب أعماله وإيتاء كل ذي حق حقه، من الدرجات العليا أو الدركات السفلى).

# المبحث الثامن

## إبراهيم - عليه السلام - في ضوء القرآن الكريم

ويشتمل على :

منن الله على إبراهيم – عليه السلام –

مناقشة ما أثير حول إبراهيم – عليه السلام – من شبهات

# إبراهيم عليه السلام

إن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام أكرمه الله وهو شيخ كبير بذرية بارك فيها بالنبوة والحكمة والملك ، واتخذه الله خليلاً حيث لا مكان في قلبه لأحد سواه.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ١٢٥ : النساء فلا يوجد في قلب إبراهيم عليه السلام ما يعادل محبة الله ورضاه حتى ابنه إسماعيل الذي أمر بذبحه فامتثل فيه أمر ربه: قال تعالى:﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . ١٠٢ : الصفات

وعلينا أن نتأمل في هذا الابتلاء المبين، ولده الذي لم يرزق به إلا وهو شيخ كبير يأمره الله بذبحه فيمتثل أمر الله.

لذلك استحق إبراهيم عليه السلام أن يكون أمة، يقول تعالى:
﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ١٢٠ -١٢٢ : النحل.

﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ أي كان أمة وحده، إذ كان عنده من الخير ما كان عند أمة بأسرها ، أو كان منفرداً بالإيمان في وقته مدةً ما والناس كلهم كفارة ، ﴿ قَانِتًا ﴾ مطيعاً

لله خاضعاً له، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ اختاره واصطفاه للنبوة[1]

وقد أمر الله تعالى نبيه محمد ﷺ الذي كان استجابة لدعوة أبيه إبراهيم وحفيده من ولده إسماعيل يقول تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ١٢٩ :البقرة.

أمره سبحانه أن يتبع ملة إبراهيم في التوحيد الخالص والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والثبات على الحق حتى يأتيه نصر الله.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٢٣ :النحل

﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ شريعته وهي التوحيد، وهي الإسلام الحنيف[2].

نشأ أبو الأنبياء عليه السلام في أرض العراق بين قوم يقدسون الكواكب ويعبدون الأصنام فأتاه الله رشده، فأعترض على عبادة قومه ووجههم إلى التوحيد.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ ٥٢ :الأنبياء ثم واجه قومه قائلاً لهم ما حكاه القرآن على لسانه:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

(١) صفوة البيان ٤٤٨/١.
(٢) صفوة البيان ٤٤٨/١.

يَشْفِينِ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ٧٥ -٨٢: الشعراء.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أتأملتم فعلتم أي شيء تعبدونه أنتم وآباؤكم الأقدمون[1].

تفريع على ما ظهر مما تقدم من الآيات من عدم الدليل على عبادة الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها، أي فإذا كانت باطلة لا حجة لكم عليها إلا تقليد آبائكم، فهذه الأصنام التي رأيتموها أي هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنها عدو لي لأن عبادتها ضارة لديني مهلكة لنفسي فليست إلا عدواً لي.

وذكر آبائهم الأقدمين للدلالة على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا، وأنه لا وقع عنده عليه السلام لتقدم العهد، ولا أثر للسبق الزماني في إبطال حق أو إحقاق باطل[2].

الذي خلقني فهو يهدين التعبير بالمضارع في قوله ﴿ يَهْدِينِ ﴾ لأن الهداية متجددة له. وجعل فعل الهداية مفرعاً بالفاء على فعل الخلق لأنه معاقب له لأن الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنها ناشئة عن خلق العقل كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ والمراد بالهداية الدلالة على طرق العلم كما في قوله تعالى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ فيكون المعنى:

الذي خلقني جسداً وعقلاً، ومن الهداية المذكورة دفع وساوس الباطل عن العقل حتى يكون أعمال النظر معصوماً من الخطأ.[3] وبعد أن بذل جهداً كبيراً في جدالهم ومحاولة إقناعهم بالحق، وجذب قلوبهم إلى الإيمان بالله وحده فإذا بقومه يستقبلون دعوته بتهديده

(١) صفوة البيان ١٠٩/٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٤٢/١٩.
(٣) التحرير والتنوير ٣٣٠/٧.

بغضب الآلهة ، فردّ إبراهيم عليه السلام على قومه قائلاً: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ ٨١ : الأنعام.

عطفت جملة ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ ﴾ على جملة (ولا أخاف ما تشركون به) ليبين لهم أن عدم خوفه من آلهتهم أقل عجباً من عدم خوفهم من الله تعالى ، وهذا يؤذن بأن قومه كانوا يعرفون الله وأنهم أشركوا معه في الإلهية غيره ، فلذلك احتج عليهم أنهم أشركوا بربهم المُعترف به دون أن ينزل عليهم سلطاناً بذلك.

﴿ وَكَيْفَ ﴾ استفهام إنكاري ، لأنهم دعوه إلى أن يخاف بأس الآلهة فأنكر هو عليهم ذلك وقلب عليهم الحجة ، فأنكر عليهم أنهم لم يخافوا الله حين أشركوا به غيره بدون دليل نصبه لهم فجمعت ﴿ وَكَيْفَ ﴾ الإنكار على الأمرين.

ولم يقل: ولا تخافون الله ، لأن القوم كانوا يعرفون الله ويخافونه ولكنهم لم يخافوا الإشراك به.

ومعنى ﴿ لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ ﴾ لم يخبركم بإلهية الأصنام التي عبدتموها ، ولم يأمركم بعبادتها خبراً تعلمون أنه من عنده فلذلك استعار لذلك الخبر التنزيل تشبيهاً لعظم قدره بالرفعة ، ولبلوغه إلى من هم دون المخبر ، بنزول الشيء العالي إلى أسفل منه.

السلطان: الحجة لأنها تتسلط على نفس المخاصم ، أي لم يأتكم خبر منه تجعلونه حجة على صحة عبادتكم الأصنام[1].

وتشاور قوم إبراهيم فيما بينهم وأجمعوا رأيهم على التخلص منه عليه السلام ، وهذه لغة الجبارين وشأنهم أمام دعوة الحق التخلص من أصحابها أو تعذيبهم حتى الموت ، والحيلولة

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٢٣٠.

بينهم وبين نشر هداية الله في الأرض فحكى القرآن قولهم: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ ٦٨ :الأنبياء.

وكان الجدير بمنطق العقلاء من البشر أن يتفكروا في دعوته وفي الأدلة التي بينها لهم على فساد وبطلان عبادة الأصنام، ويتأملوا بالنظر الثاقب والفكر المستنير في دلائل نبوته عليه السلام ولكنهم أعرضوا عن المنهج الحق، وأجمعوا رأيهم على إبادة دعوته، وإخماد نور رسالته بإحراقه أمام مشهد عظيم من الخلق فتولى الله أبطال مكرهم، ورد كيدهم في نحورهم بقوله تعالى: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ ٦٩ :الأنبياء.

وهذا النص الإلهي الحكيم يشير إلى عدة معجزات أيد الله بها أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام:

- سلب خاصية الإحراق عن النار لإبراهيم عليه السلام.
- وفي قوله ﴿ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ معجزة أخرى لأن سلب خاصية الإحراق عن النار مرتبط بإبراهيم عليه السلام ولولا ذلك لسلبت خاصية الإحراق عن النار مطلقاً.
- في قوله: ﴿ بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا ﴾ معجزة ثالثة لأنه لو لم يقل ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ لهلك إبراهيم عليه السلام من شدة البرد[1].

هاجر إبراهيم من أرض الكفر ، وتوجه غرباً وأقام بالشام وزار مصر، وعاد منها بهاجر التي رزق منها بولده البكر إسماعيل الذبيح، لذلك قال الرسول ﷺ:

(أنا ابن الذبيحين) والمراد إسماعيل عليه السلام، وعبد الله والد النبي ﷺ وأسكن[2] إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل وأمه حيث توجد الآن مكة المكرمة قبلة المسلمين.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٠٦/١٧.

(٢) انظر قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده عندما همّ بحفر بئر زمزم انظر السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري ٩٢/١.

ثم منّ الله علي زوجه سارة بإسحاق الذي رزق من ولده يعقوب بأنبياء بني إسرائيل.
والمتتبع لدعوة إبراهيم عليه السلام لقومه ومحاوراته معه لإثبات عقيدة التوحيد وإقامة الحجة عليهم إن هم أعرضوا وأبو الإيمان يجد أموراً تحتاج إلى بيان وتوضيح بيانها كالآتي:

**أولاً :**

محاجة إبراهيم لقومه في عبادة الكواكب وقوله في أثناء جداله لهم: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ٧٦ : الأنعام.

فكيف يصدر منه هذا القول الذي هو في ظاهره شرك بالله ، وهو الذي يدعو إلى التوحيد ونبذ عبادة الأوثان ؟

هذا الكلام من إبراهيم عليه السلام يوضح لنا معناه والمراد منه قاعدة علمية ذكرها علماء آداب البحث والمناظرة وهي: (مجاراة الخصم والتسليم له فيما يقول لإثبات فسادو بطلان قوله وإقامة الحجة عليه).

**قال الزمخشري في تفسير هذه الآية:**

(هذا ربي قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة)

**وذكر الزمخشري أيضاً:**

(كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح

مرد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها صانعاً صنعها ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها، ومسيرها وسائر أحوالها)[1].

## وخلاصة ما قيل في هذه المسألة:

أن إبراهيم عليه السلام كأنه قال لهم.

سلمت جدلاً أن الكواكب آلهة، ولكن العقل يقضي بعدم غياب الآلهة، وقد غابت فلا يصح أن تعبد من الله الذي لا يغيب.

فإبراهيم بهذا الأسلوب لا يقر الشرك ولكن يبطله بالدليل.

## ثانياً:

ومن الأمور التي تحتاج إلى بيان وتوضيح في قصة إبراهيم عليه السلام تأكيده تكسير أصناعهم ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ ٥٧ :الأنبياء.

قوله ﴿ لَأَكِيدَنَّ ﴾ أي: لأجتهدن في كسرها.

وهذه طريقة فعلية دالة على أنه على الحق بعد أن أتى بطريقة قوله: ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الخ فجمع بين القول والفعل، فلما لم يكتفوا بالطريقة القولية عدل إلى الطريقة الفعلية وهي الكسر فكسرها[2].

وعند سؤالهم له عليه السلام.

﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ ٦٢ -٦٣: الأنبياء.

---

(١) انظر الكشاف للزمخشري / ، وليحر المحيط لأبي حيان٤/١٦٦.

(٢) حاشية الجمل ٣/١٣٣.

أليس إنكار ما فعله يعد كذباً؟! قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ هذا على طريق الكناية العرضية فهذا يستلزم نفي فعل الصنم الكبير للتكسير وإثباته لنفسه ، وهذا بناء على أن الفعل وهو الكسر دائر بين عاجز وهو ذلك الصنم، وقادر وهو إبراهيم، إذ القاعدة أنه إذا دار فعل بين قادر عليه وعاجز عنه، وأثبت للعاجز بطريق التهكم به لزم منه انحصاره في الآخرة، وحاصله أنه إشارة لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء والتضليل(١).

## وأحسن الأجوبة في هذه المسألة:

أن إبراهيم لم يكذب ، بل أثبت أنه صادق ولكن بطريقة غير مباشرة ، أو كان صدقه قضية تحمل معها دليلها ، فلو كنت مثلاً خطاطاً ماهراً لا يجيد الكتابة غيرك، وسألك أميّ غير مجيد لكتابة: أأنت كتبت هذا فقلت له باستهزاء: بل أنت الذي كتبته؟ فالغرض هو إثبات الكتابة لك، مع استهزائك بالسائل الذي ما كان ينبغي له أن يوجه هذا السؤال الظاهر البطلان.

ولذلك لما أجابهم إبراهيم بأن الذي كسر الأصنام هو كبيرهم، رجعوا إلى أنفسهم يتهمونها بالغباء، لاعتقادهم ألوهية من لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر ولا يرد عن نفسه كيداً ، ولكن العناد جعلهم يتمادون في مجادلتهم وتكذيبه ، ولجئوا أخيراً إلى التهديد باستعمال القوة والعنف ، وهو سلاح كل عاجز عن الاستمرار في المحاجة المنطقية(٢).

## ثالثاً :

ومن الأمور التي تحتاج إلى تنبيه وتوضيح ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ ٨٩ : الصافات وقد كان سليماً بدليل تكسيره للأصنام .

---

(١) حاشية الجمل ١٢٤/٢.

(٢) انظر الكشاف للزمخشري ٣/ البحر المحيط لأبي حيان ٣٢٥/٦.

**فهل يعد مثل هذا كذباً؟؟**

وللإجابة على هذا السؤال نذكر النص الإلهي الحكيم محلّ هذا السؤال يقول تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ٨٨ -٨٩: الصافات.

أي نظر إبراهيم في علوم النجوم ومعانيها لا أنه نظر إليها تعظيماً وتقديساً كما كان يفعل قومه، مريداً بذلك أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون أو أن المراد تأمل في الكون والسماء وأطال الفكر قال قتادة: إن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكرة: نظر في النجوم، أي أطال الفكرة فيما هو فيه.

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي مريض عليل، قاصداً بذلك أنه مريض القلب من إقبال قومه على الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

**والخلاصة:** إن نظر إبراهيم في النجوم، وقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، من قبيل التورية ، فإنه أراد وفهموا منه شيئاً آخر تمهيداً لخطته التي بيّنها في أن يكايد أصنامهم، حينما سيخرجون من الغد في يوم عيد لهم، وذلك بالتخلف عن الخروج معهم، دون أن يطلعوا على ما بيّت عليه النية.

وبه تبين أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم على النظر إلى النجوم كما يفعل عبدتها، فذلك غير جائز، ولم يكن كاذباً في قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [1]

**ويحمل القول في جواب هذه المسألة:**

أنه كان عليه السلام بالفعل سقيماً، وسقمه نفسي، من تماديهم في الضلال ، على الرغم من قوة الحجة، كما قال الله تعالى في حق سيدنا محمد ﷺ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف.

---

(١) التفسير المنير ١١٢/٢٢، ١١١ ، حاشية الجمل ٣٢٢/٣.

فقد أوهمهم إبراهيم أنه سقيم الجسم، على ما كانوا يعتقدون من تأثير الكواكب في الأجسام، وهو في الوقت نفسه سقيم النفس، وذلك من المعاريض التي فيها مندوحة عن الكذب.

**رابعاً:**

ومن الأمور التي تحتاج إلى بيان وتوضيح قول إبراهيم عليه السلام عن زوجه سارة إنها اخته فورد في صحيح السنة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ولم يكن سقيماً، وقوله لسارة اختي وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [1]

**قال النووي:**

(إن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسماع. وأما في نفس الأمر فليست كذباً مذموماً لوجهين: أحدهما أنه ورّى بها فقال سارة أختي في الإسلام وهو صحيح في باطن الأمر والوجه الثاني أنه لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً في دفع الظالمين، وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنسانا مختفياً ليقتله أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به، وهذا كذب جائز بل واجب لكونه في دفع الظالم، فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلة في مطلق الكذب[2].

**والخلاصة:** أن قول إبراهيم عن زوجه سارة أنها أخته، فهي أخته في الإسلام، وذلك ليخلصها من ظلم فرعون.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، صحيح الترمذي (٣١٦٦) وأبو داود (٢٢١٢)، فتح القدير ٥٨٦/٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣٢/١٥، ١٣٣.

وإحجام إبراهيم عليه السلام عن الشفاعة العظمى يوم القيامة كما ورد في صحيح السنة[1] على الرغم من سلامة مواقفه، استحياء من الله أن تكون في حياته صورة المعصية وإن لم تكن محل المؤاخذة، وحسنات الأبرار سيئات المقربين كما هو معروف.

**خامساً:**

ومن المسائل العلمية التي تحتاج إلى توضيح في قصة إبراهيم عليه السلام وعده لأبيه المشرك بالاستغفار له يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ١١٤ :التوبة.

أما استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه آذر بقوله:﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ٨٦: الشعراء

أي وفقه للإيمان - وكان إبراهيم عليه السلام يرجو إيمان أبيه - فكان استغفاره بسبب صدور وعد سابق على المنع، إذ قال: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ ٤٧ : مريم.

أي لا أملك إلا الدعاء لك، وكان من خلق إبراهيم الوفاء: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ ٣٧ النجم.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله أي بإصراره على الكفر، أو مات عليه. أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن، تبرأ منه وقطع استغفاره له[2].

---

(١) ورد ذلك في صحيح متفق عليه، انظر حديث رقم (٥٥٧٢) شرح مشكاة المصابيح للطيبي ١٠/ ١٨٩، صحيح مسلم كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة (٢٢٢) انظر شرح النووي ٣/ ٥٤

(٢) التفسير المنير ١١/ ٦٠

ومما يدل على رضاء الله عن موقفه ، ختام الآية بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ ١١٤ : التوبة أي لكثير التضرع والدعاء، كما قال النبي ﷺ (الأواه : الخاشع المتضرع[1].

سادساً:

ومن المسائل التي ينبغي التنبيه عليها أنه لا يقدح في إيمان إبراهيم عليه السلام طلبه من الله أن يريه كيف يحيي الموتى وذلك في قوله:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ ٢٦٠ البقرة.

(أرني كيف تحيي) بصرني كيفية إحيائك للموتى وسؤاله عليه السلام ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين .أو من مرتبة العلم الاستدلالي إلى مرتبة العلم الضروي الناشئ عن الحس[2].

فإن الغرض أن يطمئن قلبه برؤية كيفية إحياء الله للموتى، فهو عليه السلام يؤمن إيماناً يقينياً لا شك فيه بقدرة الله على إحياء الله للموتى فسؤاله كان عن الكيفية لا عن قدرة الله على فعل ذلك، لذلك أجابه الله إلى طلبه، وهذا دليل على رضائه عن سؤاله.

وبهذا التوضيح تبرأت ساحة إبراهيم عليه السلام من كل ما يشوب عصمته، ويتنافى مع خلقه وحنيفيته.

---

(١) المصدر السابق ص ٦١.
(٢) صفوة البيان ٨٦/١.

وعلينا أن نتخذ من حياته أسوة حسنة في توحيده الخالص، وطريقته العقلية في الدعوة، وفي ثباته علي الحق، والاستهانة بكل التحديات، وعلينا أن نزيد إيماناً بأن النصر في النهاية للحق، إذا أخلص أهله، وأن نتبرأ من الشرك وأهله، حتى يعودوا إلى الحق، وأن تكون صلتنا بالله كما قال إبراهيم في دعائه.

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ٤ -٥: الممتحنة.

## وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

## والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم